الصيام والقيام

حكم وأحكام

الدكتور يونس الأسطل

الصيام والقيام

حكم وأحكام

اسم الكتاب:

الصيام والقيام حِكَمٌ وأحكام

المؤلف: د. يونس الأسطل

isbn: 978-625-6483-80-4

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م

الناشر: دار إقدام للطباعة والنشر - اسطنبول

دار إقدام للطباعة والنشر

www.dar-ikdam.com

dar.ikdam@gmail.com

www.facebook.com/darikdam

+905060232235

+902126716248

طبع هذا الكتاب برعاية هيئة علماء فلسطين

الصيام والقيام

حِكَمٌ وأحكامٌ

الدكتور يونس الأسطل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي حبّب إلينا الإيمان، وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، لنكون من الراشدين، فاستجيبوا لربكم، وآمنوا به ؛ لعلكم تَرْشُدُون.

والصلاة والسلام علىٰ من مَنَّ الله به علىٰ المؤمنين، إذ بعثه فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، و يعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون.

وبعد،

١- فقد كُتب عليكم الصيام كما كُتب علىٰ الذين من قبلكم لعلكم تتقون، وهو أيامٌ معدودات في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً الناس، وبينات من الهدىٰ و الفرقان.

وقد ارتقىٰ هذا الواجب ليكون ركنًا رابعًا للإسلام، وليكون فريضة في كل شريعة، لما له من الحكم الجليلة، والمقاصد الجميلة، في الحياة الطيبة التي وعد الله بها المؤمنين والمؤمنات أفراداً وجماعات في هذه الحياة ويوم يقوم الأشهاد.

٢- ونظراً لأهمية الصوم في حياتنا فقد أوجبه ربنا عز وجل أحد البدائل في الكفارات، فهو صيام شهرين متتابعين في كفارة القتل الخطأ، وفي كفارة الظهار، وفي التكفير عن الإفطار ليوم واحد في رمضان، وهو صيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجعتم لمن لم يجد ما استيسر من الهدي في حج التمتع، كما أنه صيام

ثلاثة أيام لمن عجز عن كفارة اليمين، بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهو صيام ثلاثة أيام كذلك لمن اقترف أحد محظورات الإحرام وأمَّا مَنْ قتل صيد البر متعمدا وهو محرم، أو في الحرم، فجزاء مثل ما قَتَلَ من النَّعَم، يحكم به ذوا عَدْل منكم هديا بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً، ليذوق وبال أمره.

ومن نذر أن يصوم يوماً أو أكثر، فليوفوا نذورهم، وإن الله يعلمه، مع كرامة النذر في الأصل.

٣- وأما صوم النافلة فهو يكاد يربو علىٰ ثلث كل شهر، ففضلاً عن ستة من شوال؛ فإنه ثلاثة من كل شهر، وهو يومان في الأسبوع، فلا تفرطوا فيها، ولا في يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، ولا تزهدوا فيما سبقه من الأيام المعلومات من أول ذي الحجة.

٤- هذا، وإن الصوم نصف الصبر، كما جاء في الحديث، وقد ورد الصبر ومشتقاته في أكثر من ثمانين آية، ويرىٰ كثير من المفسرين أن الصوم هو المعني في الأمر بالاستعانة بالصبر مع الصلاة في الآيتين (٤٥-١٥٣) من سورة البقرة، كما فسروا به وصف السياحة في الآيتين (١١٢) من سورة التوبة، (٥) من سورة التحريم.

٥- إن الحكمة الكبرىٰ لهذه الشعيرة هي التقوىٰ، وهي مفسّرة في صدر سورة البقرة بالذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقهم ربهم ينفقون، كما يؤمنون بالكتب والرسل، وبالآخرة هم يوقنون، وقد أتىٰ زيادة تفصيل لهذه الصفات في آية البر (١٧٧) من هذه السورة، وهم الذين ينفقون في السّراء والضّراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والمحسنون لمن أساء إليهم، وهم المبادرون إلىٰ الاستغفار والتوبة إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم، كما في سورة آل عمران (١٣٣ - ١٣٦). كما أنهم الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من

الساعة مشفقون، كما في الآية (٤٩) من سورة الأنبياء.

٦- إن التقوىٰ تعني الوقاية، والصوم عن المحرمات حجابٌ عن كثير من أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة. ذلك أن شَهْوَتيْ البطون والأبضاع كانتا السبب الأول في شقاء البشرية، ولا زالتا كذلك، فإن إخراج الشيطان لآدم وزوجه كان إثر الأكل من الشجرة التي نهاهما ربهما عن قُربانها، وإن قابيل ابن آدم الأول قد أصبح من الخاسرين، إذ قتل أخاه هابيل حسداً أن تكون مخطوبته وضيئة، ليظفر بهـا، وبذلك فقد سَنَّ القتل في الأرض.

ثم إن بني إسرائيل الذين كانوا يومـًا مفضَّلين علىٰ العالمين، إذ كان فيهم أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون، غير أنهم قد هَوَت بهم هاتان الشهوتان في وادٍ سحيق، حتىٰ ضُرِبَ لهم المثل بالكلاب والحمير، وجعل منهم ربهم القردة والخنازير، فإنهم لم يصبروا علىٰ الطعام واحد. واعْتَدَوْا في السبت، لما عُوقبوا بالحرمان من الحيتان، وقد أخذوا الربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، ولم يكونوا يتناهَوْن عن منكر فعلوه، وكانت أولىٰ فتنتهم في النساء.

٧- إن أهل الجنة يقال لهم كلوا واشربوا هنيئـًا بما أسلفتم في الأيام الخالية، وكلوا واشربوا هنيئـًا بما كنتم تعملون، وفي مقدمة ذلك عبادة الصوم، لأنهـا ترك للطعام والشراب ابتداء، فحُقَّ لهم أن يُمدَّهم ربهم بفاكهة ولحم مما يشتهون، يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشراب، وعندهم قاصرات الطرف أتراب، بينما أصحاب النار ينادون عليهم أن أفيضوا علينا من الماء، أو مما رزقكم الله، فيجيبون، إن الله حرّمَهُمَا علىٰ الكافرين.

٨- إن مما يشد الانتباه أن (الأمر بالقتال في سبيل الله) قد جاء تاليـًا لأحكام الصيام في سورة البقرة، وكأن الصوم قد وجب لمقاصد، في مقدمتها أن يكون دورة تدريبية علىٰ الجهاد في سبيل الله خفافـًا وثقالاً؛ ذلك أن المجاهدين قد يُبْتَلَوْنَ بالظمأ والنَّصَبِ والمخمصة، وهم يطؤون موطئـًا يغيظ الكفار، أو ينالون

من عدو الله وعدوهم نيلاً، وهم يقطعون الأودية والفيافي، جياعـًا وعطاشـًا، وقد يربطون الحجارة علىٰ بطونهم، كما حصل يوم الخندق، أو تكاد تندقُّ أعناقهم، كما في غزوة العسرة، حين نَفَرُوا في الحرِّ إلىٰ تبوك، فهزم الله عز وجل الروم بالرعب، فولوا مدبرين، كما ردَّ الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيراً، ثم عذَّب الذين ظاهروهم من يهود بني قريظة.

٩- ولا مِرْية أن (الصبر من شروط النصر)، وأن الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، هم الذين صدقوا، و أولئك هم المتقون، كما أن الصابرين عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون، حين يصبرون علىٰ الابتلاء بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وكل ذلك من بركات الصوم، وقد عرفتم أن الصوم نصف الصبر.

ولا عجب أن يُنْزِلَ ربنا تبارك وتعالىٰ النَّصر علىٰ عبادة المؤمنين في شهر الصبر، خاصة في المعارك الفاصلة في التاريخ، فمعركة (بدر) في السابع عشر من رمضان من العام الثاني للهجرة، بينما (فتح مكة)، وقطع دابر الكافرين كان في العشرين من رمضان من العام الثامن، وفي الخامس والعشرين منه في عام ٦٥٨ هـ كانت معركة (عين جالوت) التي حرمت المغول والتتر علىٰ أرض فلسطين كما خضنا معركة العصف المأكول في العاشر من رمضان قبل إحدىٰ عشرة سنة في عام ١٤٣٥ هـ، وها هي معركة طوفان الأقصىٰ تقتحم شهر رمضان العام الثاني منذ دخولنا علىٰ بني إسرائيل الباب في السابع من أكتوبر عام ٢٠٢٣م، بالتوكل علىٰ الله، وهو خير الناصرين.

١٠- هذا، وقد جاءت هذه المقدمة استجابة لرغبة الإخوة في هيئة علماء فلسطين، وفي مقدمتهم الأخ العزيز الدكتور/ مجدي قويدر، حيث اصْطَفَوْا من بين ألف مقال أو يزيد هذه المجموعة المتعلقة بشهر رمضان، وفريضة الصيام، وما فيها من الحِكَمِ والأحكام، وما في هذا الشهر من التراويح والقيام، مع

الاهتمام الخاص بتدبر القرآن، لاستنباط بعض ما فيه من بينات الهدىٰ والفرقان، كما جرىٰ تخصيص ليلة القدر، وما فيها من الطاعة والأجر، وما تزفه من بشائر النصر، ببعض المقالات؛ فإنها خير من ألف شهر، وثوابها أعظم من الطاعة في سائر العمر، باستثناء هذه الليلة، فيا فَوْزَ مَنْ ظفر بثوابها في كل عام.

١١- وقد حرص أولئك الإخوة علىٰ تناول بعض المقالات التي لها علاقة بركن الصوم، كالشبه بين الصائمين والملائكة المقربين، فإنهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا وَطَرَ لهم، وكذا صلاة العيد، وما يصاحبها من التكبير الذي نَجأر به في وجوه المستكبرين من العبيد.

كما تناول فيها أحد المقالات تلك النوافل والواجبات التي نَنْصَبُ فيها بعد الفراغ من رمضان، استثماراً لأيامنا المعدودات التي نقضيها في هذه الدنيا، ولسنا فيها إلا كالغريب أو عابر السبيل، فلا ينبغي لعاقل أن يكون له فيها وقت فراغ، فإن الواجبات والطاعات أكثر من الأوقات، ومهما اجتهدنا فيها فسوف تكون أنفسنا لوامة يوم القيامة.

١٢- وقد اجتهدت أن تنشر هذه المقالات تحت عنوان: (الصيام والقيام حكم وأحكام) راجياً أن يتقبله ربنا بقبوله حسن، وأن يكون فيها النفع، ولها القبول لدىٰ المطالعين من إخواننا المؤمنين، ولعلها تكون إثارة أو دعوة لتدبر القرآن، وأثارة أو إشارة من الإعجاز لهذا الكتاب المبين.

ولا أزعم أنني وفَّيتُ شهر رمضان، ولا فريضة الصيام، ما ينبغي لها من البيان، وحسبي أنني اجتهدت؛ فإن أصبت فالفضل لله وحده، وله الحمد حتىٰ يرضىٰ، وإن أخفقتُ فمن نفسي، ومن الشيطان، والمأمول من القارئ الكريم أن يقدِّم النصح، ويلتمس العذر، وهو شيمة الأكرمين.

وفي الختام، فإنني أشكر أولئك الإخوة الكرام الذين ساهموا في نشر هذه

المقالات، وأعانوني علىٰ القيام بأدنىٰ ما يجب علينا من البيان وعدم الكتمان، والشكر موصول لكل من كان له أدنىٰ مساهمة في بروزها للعيان، أو طالعها، فخصَّني بدعوة صالحة في سجود، حين تتجافىٰ جنوبهم من الهجود، مع الدعاء أن يأخذ الله المنافقين، وأن يهلك اليهود.

والحمد لله رب العالمين.

جرىٰ تدوين هذه المقدمة في خيمة النزوح في يوم الخميس ٢٨ شعبان / ١٤٤٦ هـ الموافق ٢٧ / شباط / ٢٠٢٥م

د. يونس الأسطل

عضو رابطة علماء فلسطين

ومدرس الفقه والأصول

الإلمام بأهم الأحكام في مسائل الصيام

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم

فإن الصوم قد تفرد من بين فرائض الإسلام وأركانه بأنه العبادة الوحيدة التي خلصت لله تعالىٰ، فلم يتقرب المشركون يومًا لآلهتهم المزعومة بالصيام، كما أنه سِرٌّ بين العبد وربه، إذِ الله وحده هو الأعلم بالصائم من المفطر، وبمن صام إيمانًا واحتسابًا، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، من الذين إذا دنا رمضان كأنما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون.

وقد جعل الحكمة من وجوبه علينا كما كُتِبَ علىٰ الذين من قبلكم حصول التقوىٰ، وهي مشتقة من الوقاية، ولم تقيد في الآية بنوع بعينه؛ لتظل مطلقة في كل ما يتقىٰ من الشرور في الدنيا والآخرة.

هذا وقد اختير شهر رمضان حاضنًا لهذه الطاعة لكونه أنزل فيه القرآن هدىً للناس بإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، كما كان بيناتٍ من الهدىٰ والفرقان، أي تبيانًا لكلِّ شيءٍ؛ ليكون المؤمن علىٰ نورٍ من ربه، وليكون نورًا لنا نمشي به في الناس.

ولا بد من التنبيه علىٰ أن الأمة المجاهدة لا بد لها من الصوم فرضًا ونفلًا، فالجهاد كثيرًا ما يوقع في الظمأ والنصب والمخمصة، وبخاصة إذا طال الغياب، أو تمكن العدو من حصارنا، وقطع شريان الإمداد، وما لم نكن قد تدربنا من قبل علىٰ احتمال الجوع والعطش، فإننا سرعان ما نستسلم لو ابتلينا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، أو بشيءٍ من الخوف والجوع، وقد ظهرت معجزة الإسلام

والصيام في صمودنا الأسطوري أمام كل أشكال الحصار الذي ضربته حول أعناقنا أطراف دولية وعربية ومحلية، لكننا انتصرنا ونحن في عامنا الثالث، فلم يستطيعوا تركيعنا، وإن كانوا لم ييأسوا بعد، وفي جعبتهم بقية من سهام، يلعبون بها في الوقت الضائع، لكن جنوح الصهاينة إلىٰ التهدئة، واضطرار حكومة مصر إلىٰ استضافة الحوار، والانفراج الأمني مع الكيان الأردني، والتغلب علىٰ محاولات التخريب بالمربع الأمني حينًا وبالإضرابات المسيسة حينًا آخر، كل أولئك يطمئن إلىٰ أن انكسار الحصار علىٰ بعد أمتار بل أشبار بمشيئة الله تعالىٰ.

ولما كان هذا المقال ذا طابع فقهي فإن هذا القدر من المقدمة فيه الكفاية، وأتوجه إلىٰ ما استيسر من فقه الصيام:

أولًا: تعريف الصوم:

- هو لغة الإمساك مطلقًا، ولو عن الكلام، كما كان صيام مريم العذراء رضي الله عنها عندما أتت بسيدنا عيسىٰ وليدًا تحمله، فقالوا: يا مريم لقد جئتِ شيئًا فَرِّيا.
- أما في الفقه فهو الإمساك بنية التعبد عن المفطرات من طعام وشراب ووقاع، وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس.

وقد فُرِضَ في شعبان من العام الثاني للهجرة، وهو نفس السنة التي أُذِنَ فيها للذين يُقَاتَلون بأنهم ظُلِموا، وأُمِروا أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ولا يعتدوا؛ إن الله لا يحب المعتدين.

ثانيا: شروط وجوب الصوم وأدائه:

- قام الإجماع علىٰ وجوب الصوم لمن شهد منكم الشهر، وأن شروط وجوبه لا تختلف عن شروط التكليف من العقل والبلوغ، مع الإسلام.

- وأما الأداء فواجب علىٰ جميع المكلفين إلا الأَقَلِّين الذين رَخَّصَ لهم ربهم في الفطر بشرط عِدّةٍ من أيام أُخَر، مالم يكن من الذين يطيقونه بصعوبة بالغة، فعليهم إذا أفطروا طعام مسكينٍ واحدٍ عن اليوم الواحد، وأصحاب الرخصة هم المرضىٰ، والمسافرون، والمرأة التي ابتليت بأذىٰ الحيض والنفاس، ويلحق بهم الحامل والمرضع التي تخاف علىٰ نفسها من الصوم، أو علىٰ جنينها.

ثالثًا: أركان الصوم وسننه:

- اتفق الفقهاء علىٰ أن الركن الأعظم في الصوم هو الإمساك عن المفطرات من أكل أو شرب أو جماع، وكل ما يصل إلىٰ الجوف من المنافذ الطبيعية ما لم يكن عن نسيان، وكذلك ما يخرج من الإنسان متعمدًا من القيء والاستمناء، ولو بإدامة النظر أو الفكر أو الملامسة.

وقد اختلفوا في النية بين أن تكون ركنًا أو شرط صحة، وأن تقع قبل الفجر، ولو من أول الليل، أو حتىٰ من أول الشهر، وهي تتحقق بالإمساك عند سماع الأذان ولو لم يتلفظ بشيء، فالنية تتحقق بالقلب، ويشترط أن يظل جازمًا بها طيلة النهار، فلو نوىٰ الإفطار أفطر ولو لم يتناول شيئًا، ويلزمه قضاء ذلك اليوم.

- وأما سنن الصوم فأشهرها ما يلي:

١. السحور وتأخيره، فإن في السحور بركة.

٢. الفطر وتعجيله، فلا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطور، وأخروا السحور.

٣. أن يكون الفطر علىٰ رطبات أو تمرات أو علىٰ شيءٍ حُلْوٍ، مع الماء، وهو أهمها، والجمع بين الأمرين خير؛ لتوفر حاجة الجسم من الماء المنشط للعصارات الهاضمة، والطاقة الحرارية الضرورية لعملية الهضم، ثم

يصلي المغرب، ويعود إلىٰ مائدته مراعيًا عدم الامتلاء؛ حتىٰ يطيق قيام الليل والتراويح.

٤. ويستحب الدعاء عند الإفطار؛ فإنه مقبول بفضل الله ومشيئته، وخاصة المأثورة منه؛ كقولنا: ذهب الظمأ، وابتلَّت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالىٰ، وكذلك: الحمد لله الذي أعاننا فصمنا، ورزقنا فأفطرنا من غير حولٍ منا ولا قوة، وكذلك سؤال الله القبول، وغير ذلك.

٥. وهناك طائفة أخرىٰ؛ كالإكثار من الصدقات والباقيات الصالحات والأذكار وغيرها من الطاعات، والمهم هو الاجتهاد اغتنامًا لنشاط النفس، وإقبالها علىٰ الطاعة.

رابعًا: مكروهات الصوم ومفسداته:

- أما المكروهات فأشهرها؛ القُبْلةُ ومثيرات الشهوة من النظر والفكر واللمس ونحوها، وكذلك المبالغة في المضمضة والاستنشاق، أو حتىٰ فِعْلُها لغير حاجة أو وضوء، ومنها الحجامة ونحوها؛ لما في إخراج الدم من احتمال الضعف عن مجالدة الصيام.
- وأما المفسدات فضابطها كل ما أخلَّ بشرط من الشروط، أو ركن من الأركان، كالحيض والنفاس، والردة أو قطع النية، وكذلك دخول شيء إلىٰ جوف الصائم من المنافذ الطبيعية الكبرىٰ، ولو لم يكن مغذيًا، ويستثنىٰ من ذلك ما يصعب التحرز منه، كغبار الطريق والذباب والحصىٰ الصغير، والإكراه علىٰ الإفطار، أو إدخال الماء أو الغذاء إلىٰ جوفه قهرًا.

ولا شك أن أشنع المفسدات علىٰ الإطلاق هو الرفث إلىٰ النساء عمدًا من غير إكراه، يليه تناول الطعام والشراب بغير عذر مبيح.

وتحسن الإشارة هنا إلىٰ أن الصوم الحقيقي هو صوم الجوارح عن محارم

الله كلها، فما كان الصوم لمطلق الحرمان من مباحات الأفواه والأبضاع، إنما كان لاجتناب الزور قولًا وعملًا، وهذا يشمل كل الحدود التي نهينا عن قربانها.

خامسًا: مباحات الصيام وما لا يفسده:

- يجوز استعمال السواك ونحوه، دون أن يخرجه من فمه وهو مبلول بالريق، ثم يرده، وبشرط ألا يصل شيء إلىٰ الجوف لو استعمل المعجون أو الصابون، ولا حرج في الاغتسال تبردًا، أو السفر سياحة، أو التطيب والكحل، أو التداوي في العضل ونحوه، مالم يكن من المنافذ الطبيعية.
- ولا يفسد الصوم بالاحتلام بالنهار، أو الإصباح جنبًا، أو تناول المفطرات نسيانًا، أو غلبة القيء، مالم يرجع منه شيء إلىٰ الجوف بعد وصوله إلىٰ تجويف الفم.

سادسًا: ما يوجب القضاء والكفارة، أو القضاء وحده:

- رتب الفقهاء علىٰ الإفطار أمورًا منها: القضاء وحده، أو القضاء والكفارة، أو الفدية، مع وجوب الإمساك بقية النهار، وقطع التتابع فيما يشترط فيه التوالي من الكفارات والنذور، وكذلك العقوبة التأديبية المناسبة.

أما القضاء والكفارة فيجبان بالإجماع في الجماع؛ لورود النص في ذلك في حديث الصحيحين من رواية أبي هريرة أن رجلًا جاء إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم يقول: هلكت يا رسول الله، وفسَّر ذلك بالوقوع علىٰ زوجه في رمضان، فسأله عليه الصلاة والسلام عما إذا كان يستطيع أن يعتق عبدًا، أو يصوم ستين يومًا متتابعات، أو يطعم ستين مسكينًا، سواء كان ذلك علىٰ البدلية أو التخيير بين الثلاثة، فدلَّ علىٰ وجوب الكفارة، مع قضاء اليوم الذي أفطره.

ولا بد من شَدِّ الانتباه إلىٰ أن ما يفوت من ثواب اليوم الواحد لا يقدر المفطر عمدًا علىٰ تداركه ولو صام الدهر كله.

وقد أوجب الحنفية والمالكية الكفارة في تعمد الأكل والشرب قياسًا علىٰ قضاء الوطر، بجامع إفساد الصوم بما تُنَازِعُ إليه النفس، فقد خلق الإنسان ضعيفًا أمام شهوتي المعدة والقُبُل.

وقد تشدد المالكية فأوجبوا الكفارة بانتفاء النية أو قطعها، كمن أصبح ناويًا الإفطار، ولو لم يفطر، أو أصبح صائمًا ثم عزم وجزم بقطع صومه، مهما كانت فترة النية يسيرة.

- وأما القضاء وحده فيلزم بكل ما أفسد الصوم، سواء كان برخصة؛ كالسفر، والمرض، أو بغير رخصة؛ كالاستمناء، وما أفضىٰ إلىٰ الانزال.

ولا بد من القضاء في أثناء الحول قبل حلول رمضان القادم، ما لم يوجد ما يمنع من ذلك كاستمرار المرض، أو الإرضاع الذي يصعب معه الصيام، فمن أخَّر القضاء إلىٰ الأعوام القادمة وجبت عليه الفدية مع القضاء، وهي إطعام مسكينٍ واحدٍ عن كل يوم لم يقضِهِ قبل رمضان.

ولا يصح صيام النافلة قبل قضاء الفريضة، أو النذر، فليبدأ بالقضاء أولًا، ثم ليتنفل ما يشاء.

وفي الختام:

فإن في هذه العبادة من تفاصيل الأحكام ما يضيق عنه المقام، وحسبي أن أشرت إلىٰ أمهات المسائل التي عليها عماد هذه العبادة أداءً واستدراكًا، فإن أصبت فالفضل لله وحده، وإن أخطأت فمن قِصَرِ باعي، وتسويل الشيطان، وأستغفر الله من قبلُ ومن بعد.

وتقبلوا تهانيَّ الحارة بقدوم الشهر بالخير والنصر إن شاء المولىٰ تبارك وتعالىٰ، وتقبل الله صيامنا وقيامنا، وأعاننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته.

الإلمام باليسير من أسرار آيات الصيام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

شهد العام الثاني للهجرة تشريع عدد من الفرائض، وخاصة الأركان؛ كإيجاب الصوم والزكاة، ولا يماري عاقل في حاجة البشر إلىٰ الصوم أفرادًا وشعوبًا؛ لما ينطوي عليه من المنافع، ما علمنا منها وما لم نعلم، فالله يعلم مَنْ خلق، وهو يعلم وأنتم لا تعلمون.

لذلك فقد فرض علينا الصيام، وجعله آكدَ من معظم الفرائض، إذْ رفعه إلىٰ مقام الأركان من البنيان، ثم كان الندب إلىٰ الإكثار منه في مناسبات أسبوعية وشهرية وسنوية، لمن أراد أن يَذَّكَّرَ، أو أراد شكورًا؛ بل جعله بديلًا عن الإطعام في أكثر الكفارات، أو أحد بدائلها في بعضها؛ كقوله تعالىٰ في كفارة الترخص في بعض محظورات الإحرام؛ كالحلق لمن كان به أذىً من رأسه ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.. ﴾ [البقرة: ١٩٦].

هذا وقد أنزل في صيام رمضان خمس آيات من سورة البقرة، تتصدرها الآية التي في جبين المقال، وفيها ينادي الله عباده بأحبِّ نُعُوتهم، فقد حبَّبَ إليكم الإيمان، وزيَّنه في قلوبكم، وهو الذي يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين، ويخبرهم أنه كُتب عليهم الصيام كما كتب علىٰ الذين من قبلهم، فهو فريضة عامة في رسالات الله كلها، والمعروف أن التكليف إذا عَمَّ هان، ونظرًا لوطأة الصوم علىٰ النفوس فقد ذكر الفعل بصيغة المجهول؛ كالحال في إيجاب

القصاص، والوصية، والقتال، وغيرها، حتىٰ لا نجد في أنفسنا حرجًا قِبَلَ ربنا الرحمن تبارك وتعالىٰ.

وقد طوىٰ مقصد هذا الركن في رجاء حصول التقوىٰ علىٰ الإطلاق، وهو يشتمل كثيرًا من شرور الدنيا ومفاسدها، كما يتناول اتقاء اليوم العبوس القمطرير؛ فإنه يوم عسير، يجعل الولدان شِيبًا، وهو يوم ثقيل تتقلب فيه القلوب والأبصار، إلا مَنْ يأتي آمنًا يوم القيامة، فلا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يسمعون حسيسها، وهم في الغرفات آمنون.

إن الصوم انتصار علىٰ النفس الأمارة بالسوء، وهزيمة للشيطان الذي يُزَيِّنُ لأحدكم سوء عمله، فيراه حسنًا، وعلىٰ الدنيا الغرورة بزخرفها وزينتها، وإن الله لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتىٰ يُغَيِّروا ما بأنفسهم، ثم إن الصوم يورث أهله أخلاقًا وصمودًا، حتىٰ لا يهزمهم الظمأ والنَّصَبُ والمخمصة، إذا نفروا خفافًا وثقالًا، أو قاتلوا الذين يقاتلونهم، أو يَلُونهم من الكفار، أو قطعوا الأودية، ووطئوا موطئًا يغيظ الكفار.

ثم جعله أيامًا معدودات، والمعدود قليل، وفيه من تهوين الصيام علىٰ النفوس ما فيه، ثم رخَّص للمريض ومن كان علىٰ سفر أن يُفطر وأن يقضي أيامًا بِعِدَّةِ ما أفطر زيادةً في التخفيف، ولم يكن الصوم في أول الأمر عزيمة، فقد كان الذين يطيقونه مُخَيَّرين بين الصوم وإطعام مسكين عن كل يوم بما يشبعه، ومن أراد أن يتطوع بإطعام اثنين أو ثلاثة فهو خير له، لكن المسلم إذا صام كان خيرًا له من الإطعام، ولا يعقلها إلا العالِمون.

ثم جاء في الآية الثالثة فَبَيَّنَ أن المراد بالأيام المعدودات شهر رمضان، وأن اختيار هذا الشهر للصوم دون غيره لابتداء نزول القرآن فيه، وهو بيان للارتباط الوثيق بين الصيام والقرآن؛ ذلك أن ما فيه من بَيِّنات الهدىٰ والفرقان لا تُنال غالبًا إلا بنوعٍ من التدبر، ولاشكَّ أن خُلُوَّ المعدة أعون علىٰ تفهم الآيات؛ إِذِ البِطنة

تذهب الفطنة، وتُقعد الجوارح عن القيام، ومن المسلَّمات أن ناشئة الليل هي أشدُّ تواطؤًا بين القلب واللسان، وأقوم قِيلًا وتلاوة.

فالقرآن نعمة كبرىٰ؛ لأنه هدىً للناس علىٰ الإجمال بإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وعلىٰ التفصيل بما فيه من بينات الهدىٰ والفرقان، إذْ إنه نُورٌ تمشون به في الناس.

لذلك فقد نسخ التخيير، وأوجب علىٰ مَنْ شهد الشهر أن يصومه، ولئلا يتوهم أحد أن الرخصة في الفطر مع المشقة قد نسخت كذلك، فقد عاد وأكَّدها في حق المريض والمسافر؛ بحيث إذا أفطروا لزمهم قضاء عِدَّةٍ من أيام أُخَر.

ثم بين أن هذه الرخصةً تندرج في إرادة الله اليُسْرَ بعباده دون العسر، وأنه حين أوجب القضاء إنما أراد أن يكملوا العدة، فلا يفوتهم شيءٌ من الثواب، وإنهم بهذا يُكَبِّرون الله بطاعته؛ شكرًا لنعمة الهداية، ولعلهم بذلك يشكرون نعمة القرآن، إذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانًا، كما أن في الصيام شكرًا لنعمة الصحة والعافية، ولكثير من أَنْعُمِ الله المنهمرة التي إن تعدوها لا تحصوها.

بعد ذلك تجيء آية الدعاء مؤكدة أن الله تبارك وتعالىٰ قريب من عباده، فهو أقرب إليهم من حبل الوريد، فلا يحتاج إلىٰ واسطة تقربهم إلىٰ الله زُلْفىٰ، كما لا حاجة بنا إلىٰ رفع الصوت بالدعاء، فقد وسع كل شيءٍ علمًا، وهو السميع العليم، وإن الرشد الحقيقي إنما هو في الاستجابة لله، والإيمان به الذي يجعلنا جديرين بأن يستجاب لهم، ولعل السرَّ في علاقة الدعاء بالصوم أن الصائم مستجاب الدعوة حتىٰ يفطر، وبالأخص حين يفطر.

ثم كانت الآية الأخيرة التي رخصت في الرَّفَثِ والإفضاء إلىٰ النساء، كما الأكل والشرب ليلة الصيام حتىٰ يطلع الفجر، بأن يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، والمقصود خيط الظلام الدامس، وخيط النور المستطير

في الأفق، ذلك أن الملابسة والاختلاط بين الزوجين تجعل من الصعب الفطام عن الشهوة طيلة الشهر، فإن بعضكم عندئذٍ يختانون أنفسهم بالمواقعة بعد النوم، وقد كان ممنوعًا علىٰ من نام بعد الغروب إذا استيقظ أن يتناول المفطرات؛ زيادةً في الشبه بيننا وبين إخواننا الذين سبقونا بالإيمان والصيام، فقد تاب الله عليهم، وعفا عنهم، فرخَّص في المباشرة، ناصحًا أن يبتغوا بقضاء الوطر ما كتب الله لهم من الأجر بالإعفاف، ومن الولد الصالح كذلك.

علىٰ أن هذه الرخصة لا تتناول المعتكفين في المساجد؛ إذْ هو انقطاع عن الدنيا يتنافىٰ مع الرفث وتغشية الأزواج.

وقد ختم الآية بالإشارة إلىٰ أن ما ذكر من الأحكام هو حدود الله، وإياكم أن تقربوها، فضلًا عن أن تعتدوها، وفيه إيماء إلىٰ الإمساك عن المفطرات قبل الفجر الصادق بفترة؛ حتىٰ لا نقترب من حدود الله؛ فإن من حام حول الحمىٰ أوشك أن يقع فيه.

وكانت الجملة الأخيرة مشيرة أن ما ورد من بيان واضح للأحكام في هذه الآيات مثال لبيان الله آياتِهِ للناس، لعلهم يتقون، ويكون بهذا قد كَرَّرَ نفس الحكمة التي جعلها مقصدًا لكتابة الصيام عليكم، كما كتب علىٰ الذين من قبلكم في صدر الآيات.

إن الصوم فطام عن أسباب الشقاء من فجر البشرية، فهذا آدم يهبط من الجنة؛ لأكله من الشجرة المحظورة، وذلك ولده قابيل يقتل أخاه هابيل؛ ليفوز بنكاح شقيقته الوضيئة، فأصبح من الخاسرين.

أما بنو إسرائيل فقد كانت أول فتنتهم في النساء، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، كما لم يكونوا يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل، ويأخذون الربا وقد نُهُوا عنه، وقد احتالوا علىٰ محارم الله، فاعتدوا في السبت؛ إذ لم يطيقوا أن

يُحْرَموا من وجبة السمك، كما لم يصبروا من قبل علىٰ طعام واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وكان من آثارها أن باؤوا بغضبٍ علىٰ غضب، وضربت عليهم الذلة أينما ثُقِفوا، ولعنوا علىٰ لسان داود وعيسىٰ بن مريم، فجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت، وكُبْكِبوا من الاصطفاء علىٰ العالمين ليكونوا شَرَّ الدوابِّ عند الله.

والعياذ بالله تعالىٰ، وتقبل الله منا ومنكم الطاعات.

من صام إيماناً واحتساباً تمتع بالطعام والشراب الأبدي عطاءً حساباً

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة ٢٤]

يقوم الصيام علىٰ ترك الطعام والشراب وقضاء الوطر في أَنْهُرِ رمضان، فقد أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلىٰ نسائكم، كما أبيح لكم أن تأكلوا وتشربوا حتىٰ يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وكان صيام الذين من قبلكم من مغيب الشفق الأحمر عِشاءً إلىٰ مغرب اليوم التالي، ومَنْ غاب عن الوجود بالنوم لم يَجُزْ له أن يتناول شيئًا، حتىٰ لو استيقظ والشفق باقٍ في الأفق الغربي.

لذلك فإن الصائمين يفطمون أنفسهم عن تلك الشهوات الملحة علىٰ أصحابها، خاصة وأن النفس أمَّارة بالسوء، وأن الشيطان يأمركم بالسوء والفحشاء، ويزين للفاسق سوء عمله، فيراه حسنًا، فيكون ممن ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعًا، ولكن المؤمن قد أيقن أن الشيطان له عدوٌ، فاتخذه عدواً؛ لأنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، كما أن النفس كالطفل متىٰ شَبَّ علىٰ حُبِّ الرضاع، وإنْ تفطمه ينفطم، فلما أطاعوا ربهم، وحَرَموا أنفسهم تلك الشهوات إيمانًا منهم بأن الله عز وجل لا يأمر بشيءٍ، أو ينهىٰ عن شيءٍ؛ إلا لأنه يريد بكم اليُسْر، ولا يريد بكم العسر، بل ما جعل عليكم في الدين من حرج، ملةَ أبيكم إبراهيم، ولو شاء الله لَأَعْنتكم، لكنه يريد أن يخفف عنكم، وخُلِق الإنسان ضعيفًا.

أما هذه الآية فتبشر المتقين الذين يُؤْتَوْن كتبهم بأيمانهم أنهم يكونون في عِيشةٍ راضية، في جنةٍ عالية، قطوفها دانية، ويقال لهم تكريمـًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئـًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾؛ أي كلوا فقد جُعْتم، واشربوا فقد عطشتم في الحياة الدنيا التي قد خلت من قبل أن تقع الواقعة، وتنشق السماء فهي يومئذٍ واهية؛ فقد انشقت فكانت وردةً كالدهان، ثم ذابت فكانت كالمهل، ثم عادت سيرتها الأولىٰ غازاتٍ وأبخرةً مكوِّنةً ظُلَلاً من الغمام، فقد استوىٰ ربُّنا إلىٰ السماء أول مرة وهي دخان، فقضاها سبع سموات في يومين، وأوحىٰ في كلِّ سماءٍ أمرها.

إن هذه الآية لم تُفَصِّلْ في ألوان الأطعمة والأشربة التي يمتن الله تبارك وتعالىٰ بها عليكم – أهلَ الجنة–، غير أنه ذكر ذلك في مواضع أخرىٰ كثيرة من كتابه العزيز، وأكثرها يدور علىٰ فاكهةٍ ولحمٍ مما يشتهون، مع أن أهل الفردوس يُكْرَمون بزيادة كبد الحوت نُزُلاً من غفور رحيم أولَ مقدمهم إليها ودخولهم فيها.

أما الفاكهة فهي كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وإن المتقين في ظِلال وعيون، وفواكه مما يشتهون، ولكنهم كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقـًا قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل، وأُتُوا به متشابهـًا، حيث إن العين تعجز عن التفريق بين صنفٍ وآخر، فقد تشابهت الفاكهة عليهم، ولكنَّ الْوِلْدان المخلَّدين يُلِحُّون عليهم أن يتذوقوه، فإذا هو لونٌ جديد، وهذا يؤكد أن لكم فيها فاكهة كثيرة، منها تأكلون، وقد عدَّ من أنواعها النخل الباسقات، وذكر الرُّمَّان، وكذلك السِّدر المخضود، والطلح المنضود، أي السدر الذي لا شوك فيه، والموز النضيد المرتب بعضه فوق بعض بطريقة هندسية تأخذ بالألباب، وحسبنا أنه فيهما من كلِّ فاكهة زوجان، وأن الجنة أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها، وأن لهم فيها ما يشاؤون، ولدينا مزيد.

وأما اللحم فقد جاء مقيَّداً بكونه لحم طير مما يشتهون، وقد جاء في بعض الآثار أن الطير يمرُّ بأحدكم في الجنة فيشتهيه، فيخرُّ مشويـًا بين يديه، ولكن بعد

أن يقول: (سبحانك اللهم)؛ فإن مَنِ اشتهىٰ شيئًا فَحَسْبُهُ أن يدعو بذلك الدعاء، ومتىٰ قضىٰ شهوته منه حمد الله تعالىٰ؛ مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]

ففي هذه الآية أول الدعاء، وآخره كذلك، وهو قائم علىٰ تنزيه الله عن العجز وهو مدلول التسبيح، ثم إثبات جميع صفات الجلال والجمال والكمال لذات الله سبحانه وتعالىٰ، وهو مدلول التحميد.

فإذا انتقلنا إلىٰ الأشربة وجدنا بعد الكوثر جنةً فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ، وأنهارٍ من لبنٍ لم يتغير طعمه، وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّىٰ، كما وجدنا الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجُها كافوراً، عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً، فحيثما تَنَقَّلوا في جِنَانِهم فبإمكانهم أن يفجِّروا تلك العين؛ إذْ يكفيه أن يركض الأرض برجله، فإذا هي مغتسلٌ باردٌ وشراب.

كذلك فإنهم يُسْقَونَ فيها كأسًا كان مِزاجُها زنجبيلاً، عينًا فيها تسمىٰ سلسبيلاً، وبعضهم يُسْقَوْنَ من رحيقٍ مختوم، ختامه مسك، ومزاجه من تسنيم عينًا يشرب بها المقرَّبون؛ أي يتمتع بها ويتنعم، فالشراب للمتعة لا للرِّيِّ، فما في الجنة ظمأٌ أبداً، كما أن أهلها لا يجوعون ذات مرة بتاتًا.

وهناك شراب يطوف به الولدان المخلدون الذين يحملون صِحَافًا من ذهبٍ وأكوابًا من فضةٍ كانت قواريراً، أيْ شفافة كالزجاج، يُرَىٰ باطنها من ظاهرها، فليستْ معتمة كالفضة في الدنيا، وتلك الأكواب بعضها أباريق، وهو مَالَهُ عُرْوةٌ يمسك بها الكوب، غير أن الولدان المخلدين الذين تراهم لؤلؤاً منثوراً، كأمثال اللؤلؤ المكنون، يعرفون حاجة كلِّ شخصٍ، فيقدِّمون له كأسًا مقدرةً علىٰ مقاس رغبته، بحيث لا تنقص عما تشتهيه نفسه، ولا يزيد في الكأس أو الإبريق شيء

تعافه النفس أبداً، هذا فضلاً عن الأكواب الموضوعة بجوار السرر المرفوعة في الجنة العالية، التي لا تسمع فيها لاغية.

أذلك خير نُزُلاً أم شجرة الزقوم التي جعلها الله فتنةً للظالمين، أم طعام الضريع، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وهو شوكٌ يابس يغرس أنيابه في الحناجر، فيكون طعاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً؛ لأنه لا يموت بسببه ولا يحيىٰ، أم طعام الغسلين الذي لا يأكله إلا الخاطئون، وهو غسالة أهل النار، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، وسُقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم، فإذا كانوا من أكابر مجرميها صُبَّ من فوق رؤوسهم الحميم، فيصهر به ما في بطونهم والجلود، لأن الله عز وجل قد قال في أبي جهل بعد أن تَوَعَّده بالزقوم كالمهل يغلي في البطون كَغَلْيِ الحميم: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاء الْجَحِيمِ* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ* ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧-٤٩]

وهناك لونٌ ثالثٌ من عذاب الحميم، وهو أن يلقىٰ فيه أهل النار، فيطوفوا بينها وبين حميمٍ آنٍ، حين توضع الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم، ثم في النار يسجرون، أو كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ* ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَىٰ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧-٦٨]

إنهما صورتان متباينتان تماماً، فمن شاء فليصمْ، ومن شاء فليفطرْ، فقد أعتدنا للمفطرين جوعاً وظمأً يأكلون معه الزقوم والضريع والغسلين، ويشربون الحميم والغساق والمُهْل والصديد، الذي يتجرعه المجرم، ولا يكاد يسيغه، ويأتيه الموت من كل مكان، وما هو بمِّيت، وأما الصائمون فهم يدعون فيها بكل فاكهةٍ آمنين، وأمددناهم بلحمٍ مما يشتهون، ومن حولهم الولدان المخلدون الذين يطوفون بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معين.

اللهم اجعلنا ممن زُحْزِحَ عن النار، وأُدخل الجنة، ففاز فوزاً عظيماً

وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم. وبعد:

فإن المستجد في شهر رمضان هو صيام أيامه المعدودات وجوبـًا، وقيام لياليه بالتراويح استحبابـًا، مع لزوم الترتيل فيها للقرآن الذي أُنزل في شهر رمضان. ولعل الحكمة في هذين التكليفين أن نستعين بهما علىٰ تدبر القرآن بقدر الإمكان؛

للوقوف علىٰ بعض ما فيه من بينات الهدىٰ والفرقان.

ولما كان القلب هو مناط التعقل والتدبر حتىٰ لا يكون علىٰ قلوب أقفالها، فقد لزم إراحته في الصدر، وتفريغه من الشواغل، وقد تكفل الصيام بالمهمة الأولىٰ، بينما وفر القيام المهمة الأخرىٰ.

فأما الصوم فإنه مع فراغ المعدة يرتخي الحجاب الحاجز بين تجويفي الصدر والبطن، فيرتاح القلب، ويعمل بحرية، وحين تمتلئ المعدة تضغط علىٰ ذلك الحجاب، فيرتفع إلىٰ أعلىٰ، ويضغط علىٰ القلب، فيصير في حرج، فأنىٰ له أن يتدير القول بكامل طاقته؟!

وأما الليل فإنه لباس وسكن؛ حيث يتوقف القدم فيه عن السبح الطويل، فيرتاح القلب من هموم وظائف النهار، والضرب في الأرض، وحالئذ تتواطأ الجوارح علىٰ تفهم الكتاب، فاللسان يتلو، والآذان تسمع، والجنان يتدبر، زيادة علىٰ تمتين الحفظ، وتقويم النطق بالقرآن، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

وفي هذا الإطار فقد رغبت في تدوين بعض الفتوحات في فهم كتاب الله عز

وجل، مما له علاقة بالصيام، بما يصلح أن يكون موضوع خطبة أو ندوة، خاصة في شهر رمضان الذي ابتدئ فيه إنزال القرآن، وخاصة في الليلة المباركة منه في البقعة المباركة من الحجاز، فإن أول بيت وضع للناس الذي بيكة مباركًا وهدىٰ للعالمين، ولا يناسب الكتاب المبارك المنزل علىٰ النبي المبارك بواسطة الملك المبارك إلا الزمان المبارك، والمكان المبارك، وقد قال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدبروا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]

ذلك أن التدبر هو الذي يُفضي للتذكر، ولكن أولي الألباب والنهىٰ هم الذين يتعظون به، ويكون لهم هدىٰ ورحمة وشفاء لما في الصدور، بينما غيرهم لا يزيدهم القرآن إلا طغيانًا وكفراً، فإنهم في قلوبهم زيغ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.

ولنتوجه الآن إلىٰ نموذج من التدبر لآية لها ارتباط بالصيام، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]

وقد سبق شبيه هذه الآية في سياق الميثاق الذي أُخِذ علىٰ بني إسرائيل؛ فقد جاء فيه: ﴿واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَىٰ الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦) وقد فُسِّرَ الصبر في الآيتين بالصوم، أو أن الصوم يدخل فيه دخولاً أوليًا، ولا غرو في ذلك فالصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان، كما جاء في الأحاديث، ولذلك فقد صدرت الآية التي توجه الخطاب فيها إلينا بنداء الإيمان، بينما جاءت في خطاب بني إسرائيل بالأمر المباشر، وأخبر أنها ثقيلة عليهم، إلا علىٰ الخاشعين منهم، الذين يوقنون بلقاء ربهم، وأنهم إليه راجعون، بينما لم يذكر ذلك في حقنا، فدل ذلك علىٰ أن الصلاة خاصة، أو الاستعانة بالصبر والصلاة، خفيفة علينا، وأننا من الخاشعين، ولا عجب في ذلك فإننا من الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله، وإنا إليه راجعون.

ولعل السر في الجمع بين الصبر والصلاة في الاستعانة علىٰ العهد والتكاليف أنه بالصبر ننال كل فضيلة، وبالصلاة ننتهي عن كل رذيلة، خاصة وأن الصبر ثلاثة أنواع:

الأول: الصبر علىٰ ترك المحارم والآثام، وهو الصبر عن اقتراف المعائب.

الثاني: الصبر علىٰ فعل الطاعات والقربات، وهو الصبر علىٰ احتمال المتاعب.

الثالث: الصبر علىٰ المصائب والنوائب؛ فإنها اختيار الله ذي المكارم والعجائب.

إن هذه الآية، وهي محور التدبر قد جاءت بعد قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]؛ فقد أمر الله جل وعلا فيها بذكره وشكره، ونهىٰ عن كفره، أو كفر نعمته، ولا شك أن هذا تكليف شاق، ومن يطيق ذكر الله وشكره إلا المؤمنون؟! فإنه قليل من عباده الشكور، ولا تجد أكثرهم شاكرين، كما أنه إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون، بينما المؤمنون إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، ولكنهم بعد ذلك تطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، وإذا اقشعرت من كتاب الله جلود الذين يخشون ربهم، فسرعان ما تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر الله.

وقد وعد ربنا تبارك وتعالىٰ مَنْ ذَكَرَهُ مِن عباده أن يذكره، فإن ذكر الله في نفسه ذكره الله في نفسه، وإذا ذكره في ملا ذكره في ملأ خير من ملئه، فإن الله عز وجل إذا أحب عبداً نادىٰ جبريل فقال: إني أحب فلانـًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانـًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

إن ذكر الله لنا نعمة تستوجب شكره جل وعلا، وإن دلالته لنا علىٰ ضرورة ذكره نعمة أخرىٰ، تستوجب شكراً آخر، لذا فقد أمرنا بشكره عليهما، وعلىٰ عموم نعمه التي إن تعدوها لا تحصوها، ونهانا عن ضد الشكر، وهو الكفر بتلك النعم، وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم، إن عذابي لشديد.

بعد هذه المقدمة البيانية لمعنىٰ الآية (١٥٢) التفت إلىٰ الآية التي تليها، وهي موضوع التدبر، فأجدها ترشد إلىٰ الاستعانة علىٰ تلك التكاليف الثلاثة بالصبر والصلاة وهي إشارة إلىٰ وطأة تلك التكاليف علىٰ النفس، وأننا في حاجة إلىٰ الاستعانة عليها بالصبر والصلاة، مع التأكيد أن معية الله مع الصابرين، وبتلك المعية نصبر علىٰ أعباء التكليف، فإن الصلاة لكبيرة إلا الخاشعين المؤمنين ولذا فقد صَدَّرَ هذه الآية بنداء الإيمان، بينما المنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالىٰ، وإذا قاموا إلىٰ الصلاة قاموا كسالىٰ، يراؤون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً.

خلاصة القول: إن الله عز وجل. لما كلفنا بذكره وشكره، وعدم ججود نعمه، أرشدنا إلىٰ الاستعانة علىٰ ثقل ذلك التكليف بالصبر وحبس النفس علىٰ احتمال ذلك، بالتطلع إلىٰ ما أعده الله للصابرين في الآخرة وفي الدنيا، وإنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب، كما أن كلمة ربنا الحسنىٰ إنما تتم علىٰ عباده في الدنيا بالصبر، فيجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين، وإنما يستحق الإمامة، والاشتغال بالهداية الذين صبروا، وكانوا بآياته يوقنون.

كما أرشدنا إلىٰ الاستعانة علىٰ الذكر والشكر بالصلاة، فإن ذكر الله بالصلاة مقصد أكبر من مقصد نهيها عن الفحشاء والمنكر، كما أن الصلاة من الشكر العملي الوارد في قوله تعالىٰ: ﴿اعْمَلُوا قَالَ دَاوُودَ شُكرا﴾ [سبأ: ١٢]، ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة، وكان يقول: «أرحنا بها يا بلال» أي حين يؤذن لها بصوته الجهوري الندي.

وإنه لمن المفيد أن أعرج علىٰ معنىٰ الآية (١٥٣) في سياقها، حيث جاءت بين يدي الحديث عن الشهداء الأربعة عشر الذين ارتقوا يوم بدر، وقد نهانا الله تبارك وتعالىٰ عن وصفهم بالأموات، مؤكداً أنهم أحياء، ولكن لا تشعرون بكُنْه تلك الحياة، فقد استأثر الله بعلمها، وحسبنا أن نؤمن أن خالق الموت والحياة يخبرنا أنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

ولعل السر في هذا الترتيب أنه كما نستعين بالصبر والصلاة علىٰ ذكر الله وشكره نستعين بهما علىٰ أعباء القتال والشهادة في سبيل الله، تلك التي جاءت تطبيقًا عمليًا علىٰ يمين الله بحتمية الابتلاء بشيء ومن الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات حتىٰ يعلم الذين جاهدوا منكم، ويعلم الصابرين القائلين عند المصيبة: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»، فيشكركم الله علىٰ ذلك بالصلوات، والرحمة، ويزيدهم من فضله بالشهادة لهم بالهداية، والذين اهتدوا زادهم هدىٰ، وآتاهم تقواهم، ويزيد الله الذين اهتدوا هدىٰ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا، وخير مرداً.

وإنه لمن المفيد أيضًا أن أشير إلىٰ أن الأمر بالذكر والشكر، وعدم الكفر قد جاء بعد قوله تعالىٰ: ﴿كما أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُم آيَتِنَا وَيُزَكِّيكُم وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون﴾ [البقرة: ١٥١] ليجيء الأمر بالذكر والشكر في مقابل هذه النعمة الكبرىٰ، نعمة إرسال رسول منكم فيكم يتلو عليكم آيات ربكم، ويزكيهم بالإيمان والعمل الصالح، ويهديكم إلىٰ الشريعة والمنهاج الرباني، أو الدستور والقانون الإلهي، ويعلمكم أشياء كثيرة لم تكونوا لتعلموها، لولا إرسال الرسول، خاصة وأن الله عزوجل قد نزل عليه الكتاب تبيانًا لكل شيء، وكل شيء فصله تفصيلاً، وما فرط في الكتاب من شيء؛ ذلك أن كثيراً من العلوم التي اكتشفها الناس بجهد ضخم من البحث والتحليل، فعرفوا بها ظاهراً من الحياة الدنيا، كان القرآن قد أراحهم من عناء ذلك، لو أخذوا

الكتاب بقوة، وذكروا ما فيه؛ غير أنهم قد اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، واتخذوه وراءهم ظهرياً، فكانت معيشتهم ضنكاً، وإن أراحوا أبدانهم بالحضارة المادية التي أغفلت حظ الروح، وركضت وراء المتاع البهيمي للبدن، مع أن السعادة الحقيقية إنما هي في القلوب التي في الصدور، صدور أولئك الذين يحبهم الله ويحبونه، ورضي الله عنهم ورضوا عنه، فكأنما حيزت لأحدهم الدنيا بحذافيرها، حتىٰ لو لم يكن عنده منها إلا قوتُ يومه، ما دام آمناً في سربه، معافىٰ في بدنه.

وفي إطار التدبر الواجب فإنه من اللازم الاجتهاد في تنزيل تلك الفهوم والعلوم علىٰ الواقع؛ ليكون القرآن نوراً نمشي به في الناس، ذلك أننا اليوم في أتون الابتلاء بالبأساء، والضراء، والزلزلة التي يقول معها أكثر الناس: متىٰ نصر الله؟!، فاليهود ماضون في تهويد فلسطين، وقد أعانهم عليها قوم آخرون من المحسوبين علىٰ جلدتنا الفلسطينية، أو قوميتنا العربية، أو هويتنا الإسلامية ولاية ونصرة، أو تطبيعاً وعمالة؛ بل تعاوناً أمنياً وخيانة، فقد تجهمنا البعيد والقريب، وملك كثيراً من أمور حياتنا الرويبضات، إذا أحسنا الظن فيهم، أو يهود مدسوسون علىٰ هويتنا، فهم يتكلمون بألسنتنا، وقد يلبسون لنا جلود الضأن، ولكنهم ذئاب لا يألونكم خبالاً، ودّوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، وإذا خلوا إلىٰ شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون.

ما أحوجنا أن نستعين عليهم بالله، وعلىٰ جهادهم بالصبر والصلاة، وبذكر الله وشكره، ليذكرنا الله عز وجل بولايته ومعيته، وليكافئنا بصلواته، ورحماته، وبأخرىٰ تحبونها، نصر من الله، وفتح قريب، وبشر المؤمنين الصابرين الذين يقولون كالحواريين: نحن أنصار الله، فيؤيدنا الله علىٰ عدونا، وتصبحون ظاهرين. والله تعالىٰ أعلم.

الصائمون مع الملائكة الكرام
والمفطرون دون بهيمة الأنعام

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ. وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤١ – ٤٧]

مع قدوم رمضان يحسن أن أشير إلىٰ المصير الذي ينتظر الفريقين؛ فريق الصائمين، وشرذمة المفطرين؛ ذلك أن الله جل جلاله لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية، فأنتم الفقراء إلىٰ الله، والله هو الغني الحميد، ومن رحمته بعباده أن شرع لهم، وأوجب عليهم ما ينفعهم في دنياهم، ويسعدهم في أُخْراهم، كما حذَّرهم، وحرَّم عليهم ما يشقيهم في الدنيا، ويُرْدِيهِم في الآخرة.

ومن المعلوم أن أبانا آدم قد سكن جَنَّةً لا يجوع فيها ولا يعرىٰ، وأنه لا يظمأ فيها ولا يضحىٰ؛ ليأكلا منها رَغَداً حيث شاءا؛ مع عدم قربان شجرةٍ واحدةٍ بعينها، ولما أكلا منها كان الشيطان قد أخرجهما من الجنة؛ ليشقىٰ آدم ونسله، وقد صار الحصول علىٰ أسباب العيش بِشقِّ الأنفس، وبالكدح والكَبَدَ، وإنفاق المال اللُّبَد، فكان شقاؤنا ابتداءً من تلقاء بطوننا.

ثم إن ابن آدم قد حسد أخاه علىٰ وضاءة مخطوبته، فقرَّر أن يقتله؛ ليظفر بها، فطوَّعتْ له نفسه قَتْلَ أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين، وبذلك فقد سَنَّ القتل ظلمـًا وعدوانـًا؛ بدافع الغريزة، فكان شقاؤنا ثانيـًا من تلقاء الفروج.

لذلك فإن ركن الصوم قد رضيه لنا دينـًا ربنا تبارك وتعالىٰ؛ لننتصر علىٰ هاتين الشهوتين، فَنَسْلَمَ من أعظم أسباب الشقاء في الأرض، ولِنَنْعُمَ بالحياة

الطيبة، وصلاح البال، إذْ تكون النفس الأمَّارة بالسوء عاجزةً أن تُغْوِيَ صاحبها، أو أن تُرَكِّعَه لشياطين الإنس والجن؛ فإن كيد الشيطان كان ضعيفـًا.

إن بني إسرائيل لمَّا كانوا أحرص الناس علىٰ حياة، فقد زَهِدوا في الصوم، وأطلقوا لشهواتهم العَنَان، فأكلوا الربا، وقد نُهُوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، كما كانت النساء أولَ فتنةٍ تَوَحَّلوا فيها، فَضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة، لاسيما بعد أن قالوا: لن نصبر علىٰ طعامٍ واحدٍ، فادعُ لنا ربَّك يخرجْ لنا مما تُنْبِتُ الأرض من بقلها وقِثَّائها وفُومها وعدَسها وبصلها، فلما اعتدوا في السبت، وهُزِموا أمام شهوة السمك، قيل لهم: كونوا قردة خاسئين؛ بل جعل منهم القردة، والخنازير، وعَبَدَ الطاغوت، وكانوا من قبل شُبِّهوا بالحمار يحمل أسفاراً، يوم حُمِّلوا التوراة، ثم لم يحملوها، وأُخِذَ عليهم الميثاق؛ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنـًا قليلاً، لاسيما علماؤهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمنـًا قيلاً، فقد انسلخ أولئك المتزندقون من آيات الله، وأخلدوا إلىٰ الأرض، واتبعوا أهواءهم، فكان مثل كلٍّ منهم كالكلب إن تحملْ عليه يلهثْ، أو تتركه يلهث.

لقد كان بنو إسرائيل في فترة من تاريخهم خِيرةَ العالمين، يوم كان منهم أمةٌ يهدون بالحق، وبه يَعْدِلون، وكان فيهم أئمةٌ يهدون بأمر ربهم لمّا صبروا، وكانوا بآياته يوقنون، فلم تكن نفوسهم قد تغيَّرت حتىٰ يُغَيِّرَ الله ما بهم، خاصة أولئك الذين وقفتْ لهم الشمس علىٰ أبواب القدس، حتىٰ تمكنوا من فتحها؛ بقيادة يوشع بن نون فَتىٰ سيدنا موسىٰ عليه السلام، وصاحبه في رحلته إلىٰ العبد الصالح بمجمع البحرين.

وكذلك تلك الفئة القليلة التي قاتلت تحت راية طالوت، ثم كانوا عماد الخلافة في ملك سيدنا داوود، ومِنْ بعده وَلَدُهُ سليمان عليهما السلام، غير أن أجيالهم اللاحقة ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنىٰ، ويقولون: سَيُغْفَرُ لنا،

وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه، وقد ألقىٰ ربُّهم بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين.

أما آيات المرسلات فتحدثنا عن مصير المتقين، وعاقبة المحسنين، ثم الويل الذي أُعِدَّ للمكذبين، وهُيِّئَ للمجرمين.

ولا شكَّ أن الصيام في معدود الأيام من أهم أسباب التقوىٰ، خاصة وأن الصوم الحقيقي هو صوم الجوارح عن محارم الله، فإن مَنْ قَدِرَ علىٰ الصوم عن الشهوات الجامحة التي خُلق الإنسان إزاءها ضعيفـًا؛ كان أقدرَ علىٰ اجتناب محارم الأعضاء الأخرىٰ؛ فإن حدودها مؤبدة، لا تحل بغروب الشمس، ولا بِأُفُولِ الشهر، وإنَّ من لم يدع قول الزور والعمل به فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا التعب والنصب.

ولعله لهذه الحكمة عطف سبحانه علىٰ آيات الصيام النهيَ عن أكل أموال الناس بالباطل، والإدلاء بها إلىٰ الحكام؛ لتأكلوا فريقـًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون، فقد انتقل عن الصوم المؤقت في ساعات معدودات في أيام معلومات عن بعض المباحات إلىٰ الصوم المؤبَّد عن محارم الله؛ فإن من قَدِرَ علىٰ الأول هجر الثاني غالبـًا، ومن هُزِمَ أمام نفسه؛ كالذين طلبوا مائدةً من السماء معجزةً، فأحرىٰ أن يهزم أمام عدوه؛ لأن الذي لا يُضَحِّي بجزء الحياة؛ كالطعام والشراب؛ لا يُضَحِّي بالحياة كلها في سبيل الله، أو في سبيل المبادئ التي يؤمن بها، ويضحي من أجلها.

إن المتقين في ظل ممدود، بل في ظلال كثيرة، فالجنة أُكُلها دائم وظِلُّها، والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم ربهم ظِلاً ظليلاً.

وأما العيون، فمنها عين الكافور التي يتمتع بها عباد الله يُفَجِّرُونها تفجيراً

وهم يَتَبوَّؤُونَ من الجنة حيث يشاؤون، ومنها عين السلسبيل التي يمزج ماؤها الزنجبيل بكأس الأبرار؛ ليجمع لهم بين الكافور البارد والزنجبيل الحار، ثم تأتي عين التسنيم، وهي شراب المُقَرَّبين، وهم خصوص المؤمنين.

فإذا جئنا إلىٰ الفواكه وجدناها كثيرةً لا مقطوعةً ولا ممنوعة، كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقًا قالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قبل، وأُتُوا به متشابهًا؛ بحيث لا نُجِيدُ التفريق بين نوعٍ وآخر برأي العين، لكنَّ حاسة الذوق هي التي توقن بأنها أنواع مختلفة، والمهم أن جميع أصنافها تكون في غاية ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

ولعل النعيم المعنوي المصاحب لهذا النعيم الحسي أسمىٰ منه بدرجات، حين نسمع الملائكة وهم يدخلون علينا من كلِّ بابٍ يقولون: كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون، أو كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية، فقد أصابكم الظمأ والنَّصَبُ والمخمصة في سبيل الله وأنتم تصومون في الصيف، وتضربون بالسيف، أو تُبْلَوْن بشيءٍ من الجوع والخوف، فسلامٌ عليكم بما صبرتم، فنعم عقبىٰ الدار.

أما الفسقة الفجرة فليس لهم إلا طعامٌ من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، أو طعامٌ من غِسْلين، لا يأكله إلا الخاطئون؛ وإن لدىٰ ربِّنا لهؤلاء أنكالاً وجحيمًا، وطعامًا ذا غُصَّةٍ، وعذابًا أليمًا، وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه، وسُقُوا ماءً حميمًا، فقطَّع أمعاءهم، فكيف إذا سُقُوا من ماءٍ صديد، يتجرعه الواحد منهم، ولا يكاد يُسيغه، ويأتيه الموت من كل مكانٍ، وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ؟!!!.

إن قوله في الآية: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ ليس للإباحة، فالمجرمون ليسوا جديرين من هذه الدنيا بِشَرْبَةِ ماءٍ؛ لولا أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة؛ بالقياس إلىٰ جنات النعيم، إنما الأمر للتوبيخ والتقريع، فمهما تمتعتم، وأكلتم،

وألهاكم الأمل؛ فما هو إلا قليل، لا يساوي أكثر مما تأخذه الأصبع إذا غُمِسَتْ في البحر، ولسوف تعلمون، والويلُ يومئذٍ للمكذبين.

إذاً هذا هو الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمنْ، ومن شاء فليكفرْ، ولْيعلموا أن الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، والعياذ بالله.
وكل عام وأنتم بخير.

الصوم أقوى عروة وثقى في الاستمساك بحبل التقوى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

جرت العادة في ناصية شهر رمضان أن يكون الخطاب عن التقوىٰ، بوصفها الحكمة الكبرىٰ لمشروعية الصيام، كما في هذه الآية، فقد صُدِّرت بنداء المؤمنين للتنبيه علىٰ أن هذه الفريضة من الإيمان؟!، ومالها لا تكون كذلك وقد جاء في الأثر أن الصوم نصف الصبر، وأن الصبر نصف الإيمان، وهذا يعني أن الصوم ربع الإيمان، ولا عجب في ذلك فقد بني الإسلام علىٰ خمس، مفتاحها الشهادتان، وتبقىٰ أربعة أركان، والصوم هو الثالث منها، بعد الزكاة وقبل الحج. ثم أخبرت الآية أن الصوم قد كتب علينا كما فرض علىٰ الذين سبقونا بالإيمان، فهو شعيرة عامة في دين الله للأولين والآخرين، وفي ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فإن البلاء والتكليف إذا عمَّ في الناس هان علىٰ المكلفين، إذْ ليس من خصوصيات هذه الأمة وحدها، وفيه إيماء إلىٰ أن ربنا تبارك وتعالىٰ أراد أن نلحق بالسابقين، حتىٰ لا يفوزوا علينا بطاعةٍ لا ندرك ثوابها، فقد أراد لنا أن نكون الأولين يوم القيامة وإن كنا الآخِرين في الدنيا، ولا شك أن الشرائع المشتركة- مع أنه جعل لكل أمةٍ شرعة ومنهاجًا- دليل علىٰ أن المصلحة فيها لازمة لجميع الأجيال، ولا تتغير بتغير الأزمان والأقوام. ثم جعل علة هذا الواجب رجاء الظفر بالتقوىٰ، دون القطع بحصولها؛ حتىٰ نجتهد في الصيام إيمانًا واحتسابًا، ونكون في نفس الوقت مشفقين ألَّا نبلغ درجة المتقين؛ فإن المؤمنين يؤتون ما

آتوا وقلوبهم وجلة، فإنما يتقبل الله من المتقين، وقد تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون. وقد يسأل سائل عن التقوىٰ وماهيتها، وعن تجلياتها ومظاهرها، ثم عن بركتها وأجرها، وكل أولئك نجده منصوصاً في القرآن العظيم: أما حقيقة التقوىٰ فنجدها في صدر سورة البقرة، وفي آية البر منها، وفي الأحكام المعللة بها، كما نقف عليها في جوف سورة آل عمران، وفي جوانح سورة الأنبياء، ولا يخلو منها ربع المفصل كما في الذاريات.

إن أول البقرة قد أنبأ عن الكتاب أنه هدىً للمتقين، ثم نعتهم بالإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، إيتاء الزكاة، مع وجوه الإنفاق المختلفة، وهم كذلك يؤمنون بكل ما أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن، وغير ذلك من صحف إبراهيم وموسىٰ، والنبيين من قبلهم ومن بعدهم، مع اليقين الجازم بالآخرة ولقاء الله، ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقي وسعيد. وأما آية البر فزادت تفصيلاً في أركان الإيمان، وفي وجوه الإنفاق لذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأكدت علىٰ الصلاة والزكاة، والوفاء بالعهد مع الصبر في البأساء والضراء، وحين البأس، إذا حمي الوطيس والتقىٰ الجمعان، أو تقاتل خصمان اختصموا في ربهم. ولا يفوتنا أن الآية قد شهدت بالصدق وبالتقوىٰ لمن أخذوا بآية البر، ثم جعلت التقوىٰ علةً للقصاص والوصية والصوم، ولا سيما في الامتناع عن الرفث إلىٰ نسائكم، وعن طعامكم وشرابكم متىٰ تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر إلىٰ الليل، ثم في الالتزام بأحكام الاعتكاف، وإتيان البيوت من أبوابها، وفي التزود للحج، مع التنبيه علىٰ أن خير الزاد هو التقوىٰ، كما أن لباس التقوىٰ ذلك خير، وغير ذلك كثير.

أما في آل عمران؛ فأخبر أن الجنة قد أعدت للمتقين، وهم الذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، بل المحسنون إليهم،

كما أنهم إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم، سارعوا إلىٰ التوبة النصوح. وأما في الأنبياء فأخبر أن المتقين هم الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون، وفي الذاريات بَشَّر المتقين بجنات وعيون؛ فإنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم.

وأما تجلياتها ومظاهرها فإن التقوىٰ تثمر العفو، وأن تعفو أقرب للتقوىٰ، والعدل؛ اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والتناجي بالبر والتقوىٰ، وتعظيم شعائر الله؛ فإنها من تقوىٰ القلوب؛ بل الدعوة إلىٰ التقوىٰ والأمر بها؛ فإن الذي جاء بالصدق، وصَدَّقَ به، أولئك هم المتقون.

وبالإجمال فإن المؤمن الحقيقي هو الذي يجعل من التقوىٰ لباسًا يرتديه، وزاداً يقتنيه، فلا يتحرك إلا بالتقوىٰ، ولا تنفد من سلوكه وأخلاقه.

فإذا جئنا إلىٰ بركات التقوىٰ وثمارها وجدنا ربنا تبارك وتعالىٰ يؤكد أن الله مع المتقين، وأنه يحب المتقين، وأنه وليُّ المتقين، ولا يتقبل إلا من المتقين، وجعل العاقبة في الدنيا للمتقين، فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، كما أنه قد أوجب أن تأمر أهلك بالصلاة، وأن تصطبر عليها، وعَقَّب بأنه ما يريد منكم من رزقٍ، بل هو الذي يرزقكم، والعاقبة للتقوىٰ.

ولعل أعظم ثمرة للتقوىٰ هي الجنة التي وعد الرحمن عباده بالغيب، فقد أعدت للمتقين، ولنعم دار المتقين، لهم فيها ما يشاؤون، كذلك يجزي الله المتقين، فإنه يحشر المتقين إلىٰ الرحمن وفداً؛ أي راكبين معززين مكرمين، فقد أزلفت الجنة للمتقين غير بعيد، فكانت للمتقين مفازاً، حدائق وأعنابًا، وكواعب أترابًا، وكأسًا دهاقًا، بل إن المتقين في مقام أمين، في جنات وعيون، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت، إلا الموتة الأولىٰ، ووقاهم عذاب الجحيم،

ثم إنهم في جنات ونَهَر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، وهم في ظلال وعيون، وفواكه مما يشتهون، ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون، وبما أسلفتم في الأيام الخالية، ويكفي أن الآخرة عند ربك للمتقين، وأن الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، وإن للمتقين لحسن مئاب جناتِ عدنٍ مفتحة لهم الأبواب، متكئين فيها، يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب، وعندهم قاصرات الطرف أتراب.

لقد أنزل ربنا تبارك وتعالىٰ قرآنًا عربيًا غير ذي عوجٍ لعلهم يتقون، وقد أنزله قرآنًا عربيًا، وصَرَّفَ فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً، وإن الذين يُمَسِّكون بالكتاب، وأقاموا الصلاة، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوىٰ؛ فإن من يتَّق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسْرا، كما أن من يتق الله يُكَفِّرْ عنه سيئاته، ويُعْظِمْ له أجرا، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيد أعدائكم شيئًا، وإنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، كما أنكم إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، فاتقوا الله وقولوا قولاً سديداً؛ فإن الله يُنَجِّي الذين اتقوا بمفازتهم، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، فقد سيق الذين اتقوا ربهم إلىٰ الجنة زمراً، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون.

باختصار: فإن الصيام طريق التقوىٰ، وإن التقوىٰ مفتاح كل خير في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، فصوموا إيمانًا واحتسابًا حتىٰ تفوزوا بفرحتين: فرحة التوفيق للطاعة، والإعانة عليها إلىٰ الفطر، وفرحة الثواب العظيم عند لقاء الله يوم القيامة، فإن الصوم لله، وهو الذي يَجْزِي به، وإنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب. والله ولي المتقين

التقوى أزهى لباس وأزكى زاد في هذه الدنيا ويوم التناد

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]

إن الآية التي أوجبتِ الصيام عليكم كما كُتب علىٰ الذين من قبلكم قد عَلَّلتْ ذلك التكليف برجاء حصول التقوىٰ، وقد ظَلَّتْ هذه الكلمة مجملةً، فلم تُبَيِّنْ ما الذي نَتَّقِيه بالصوم، وهل للتقوىٰ مراتبُ ودرجات، وهل للمتقين علامات، وما هي تلك البركات التي تصير قطوفها دانيةً بالصوم، وغير ذلك من الأسئلة؟

فإذا نظرنا لهذه الفريضة، وتساءلنا عن سِرِّ تركيزها علىٰ البطون والفروج ابتداءً، فذهبتْ تُحَرِّمُ قربان هاتين الشهوتين في نهار الصوم، حتىٰ إذا جَنَّ علينا الليل؛ فقد أُحِلَّ لكم الرَّفَثُ إلىٰ نسائكم، وكلوا واشربوا حتىٰ يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتموا الصيام إلىٰ الليل؟

ولعل الجواب فيما أخبر به النبي صلىٰ الله عليه وسلم عندما سُئل عن أكثرِ ما يُدخل الناسَ النار؟، فقال: الفمُ والفرجُ، وعن أكثرِ ما يدخل الناسَ الجنة؟، فأجاب: تقوىٰ اللهِ وحسنُ الخلق، ولما كانت الجنة قد أُعِدَّتْ للمتقين، وهي التي يُورث ربُّنا إيَّاها من عباده من كان تقيـًا، كما يُنَجِّي الله الذين اتقوا بمفازتهم، لا يَمَسُّهم السوء، ولا هم يحزنون، وعند المرور علىٰ الصِّراط فوق جهنمَ يُنَجِّي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جِثِيًّا.

ولعلَّ ممَّا يؤكد دور الصوم في تهذيب الغريزة أن الله عز وجل قد قدَّم الصائمين والصائماتِ علىٰ الحافظين فروجَهم والحافظات، والذاكرين الله

كثيراً والذاكرات الذين أعدَّ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً في سورة الأحزاب (٣٥)، كما جعلهم الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، أولئك في جناتٍ مكرمون، كما في سورتي المؤمنون (١١، ١٠)، والمعارج (٣٥).

وحَسْبُنا أن نعلم أن أكل آدمَ عليه السلام من الشجرة المحرمة كان السببَ الأول في شقاء البشر، وأن ثانيَ الأسباب إقدامُ أَحَدِ ولديه علىٰ قتل أخيه؛ حسداً له أن كانت مخطوبته وضيئةً؛ لعله بقتله يفوز بها؛ لكنه أصبح من الخاسرين، ولم ينفعه أنه أصبح من النادمين حين رأىٰ نفسه أحطَّ من الغراب.

ثم إن بني إسرائيل ما مُسِخُوا قردةً وخنازير، وكانوا من قبل قد فُضِّلوا علىٰ العالمين، إلا بعد أن صاروا سمَّاعين للكذب أكَّالين للسُّحت، ولم يتورعوا أن يأخذوا الرِّبا، وقد نُهُوا عنه، وأن يأكلوا أموال الناس بالباطل؛ فلم يتحرَّجوا عن قولِهمُ الإثمَ، وأكلِهمُ السُّحت؛ فإذا بهم يعتدون في السبت؛ لمَّا حُرِمُوا من حيتانهم، فقيل لهم: كونوا قردةً خاسئين.

فلما جاءهم عيسىٰ بالبينات والحكمة، وليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه؛ بل وليُحِلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، لكنه أحسَّ منهم الكفر، ولم يؤمن معه إلَّا قليل، هم الحواريون، لكنهم قد غلبتهم طباعهم؛ فإذا بهم يطلبون معجزةً إضافيةً من جنس ما يهيمن علىٰ تفكيرهم، ولم تكن إلا مائدةً من السماء، وقد أَصَرُّوا علىٰ هذا الطلب، فهم يريدون أن يأكلوا منها، وتطمئن قلوبهم، ويعلموا أنْ قد صدقهم في دعوىٰ النبوة، ويكونوا عليها من الشاهدين، وكان إنزالها مقترناً بالتهديد لمن يكفر بعدها منهم أن يعذبَه الله عذاباً لا يعذبُه أحداً من العالمين، فلما عَتَوْا عما نُهُوا عنه مُسِخوا خنازير خاسئين، ولهذا فقد نُزعت راية الدعوة من بني إسرائيل، وتحوَّلتْ إلىٰ بني إسماعيل، وقد حملها العرب قروناً، حتىٰ تطاول عليهم العمر، وطال عليهم الأمد، فقستْ قلوبهم، فَعُوقبوا بالغزو الصليبي حيناً، وبالاجتياح المغولي حيناً آخر، ثم كان الاحتلال الحديث من اليهود

والنصارىٰ؛ حيث سارع الذين في قلوبهم مرض من الهاشميين والعرب في ولائهم ضدَّ إخوانهم الأتراك في مقابل وُعُودِ (عُرْقوب)؛ كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئـًا، وما السلطة الفلسطينية في انحيازها للاحتلال إلا صورةٌ شائهةٌ لتلك الخيبة التي جعلت العرب، ومنذ قرنٍ كامل، مطايا لليهود والنصارىٰ، فَمَثَلُهم في اتخاذ القرآن وراءهم ظهريـًا مهجوراً كمثل الحمار يحمل أسفاراً، لا يناله منها إلا التعب والنَّصَب، أو العَيُّ واللُّغوب، وقد أَحَلُّوا قومهم دار البوار، فهم كالعيس في البيداء يقتلها الظَّما، والماء فوق ظهورها محمول.

إن آية المقال تأمرنا بالتزوّد لسفرنا، وتخبرنا بأن خير الزاد التقوىٰ؛ وإنا إلىٰ ربِّنا لمنقلبون، وقد نصح نبيُّنا عليه الصلاة والسلام بعض أصحابه أن يكثر الزاد؛ فإن السفر طويل، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، غير أن أُولي الألباب هم الذين يتقون، أولئك الذين يخشون ربهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون، عسىٰ أن يأتوا آمنين يوم القيامة، فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة قائلين: هذا يومكم الذي كنتم توعدون.

أما عن مراتب التقوىٰ فأدناها انتفاء الشرك بالله؛ فإنه يحبط العمل، وثانيها اجتناب الكبائر؛ فإنها تجعل مقترفيها علىٰ خطر عظيم، وثالثها ترك الصغائر؛ فإنه لا صغيرةَ مع الإصرار، كما لا كبيرة مع الاستغفار، ورابعها الحرج من الشبهات لاحتمال حُرْمَتِها؛ فإنَّ كل ما ترتاب في حِلِّه حين تَتَّقيه تَسْتَبْرِئُ لدينك وعِرْضِك، وأما المرتبة السامقة للتقوىٰ فتتجلَّىٰ في الورع والزهد، وهجر شطر المباحات؛ حتىٰ لا تَقْرَب الشبهات، أو تتدنَّس بالصغائر، والأمر يسيرٌ علىٰ من يَسَّره الله عليه، فحسبك أن تعلم أنك مهما تمتَّعتَ بزينة الله التي أخرج لعباده؛ فإنما هو علىٰ حساب حظِّك في الآخرة، وإنما تُوَفَّوْنَ أجوركم يوم القيامة، ومن استكثر من نعيم الدنيا كان في رَبَضِ الجنة، بينما الزاهدون في متاع الغرور يتبوؤون الدرجات العُلا مع النبيين والصديقين، وحسن أولئك رفيقـًا.

ومن بركات التقوىٰ أن الله إنما يتقبل من المتقين، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وهو يحبُّ المتقين، كما أنه تعالىٰ مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون، وحين تتقون الله يجعل لكم مخرجًا، ويرزقكم من حيث لا تحتسبون، وإن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا، ويُصْلِحْ لكم أعمالكم، ويغفرْ لكم ذنوبكم، والعاقبة للتقوىٰ؛ فاعدلوا هو أقرب للتقوىٰ، وأن تعفوا أقرب للتقوىٰ، وتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ، وتناجوا بالبر والتقوىٰ، ولباس التقوىٰ ذلك خير، فاتقوا الله، ولتنظر نفس ما قدَّمت لغدٍ، واتقوا الله؛ إن الله خبير بما تعملون.

فتزوَّد من التقوىٰ؛ فإنك لا تدري، إذا جَنَّ ليلٌ: هل تعيشُ إلىٰ الفجرِ!!.

التقوى هي الخشية والإشفاق
الدافعان إلى الطاعة بالعشي والإشراق

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨، ٤٩].

شهر رمضان الذي كُتِبَ عليكم صيامه لعلكم تتقون، وإن أفضل تأويل للتقوىٰ هو ما جاء إيضاحه في القرآن الحكيم نفسه، وقد ورد ذلك في أكثر من موضع، غير أني آثرتُ ما نزل في سورة الأنبياء لشهادة صحف هارون وموسىٰ به؛ فإن هذه الآية تفسر التقوىٰ بنوعين من الخشية، الأول هو الوجل من الله بالغيب؛ أي من جبروته وقهره، ويحذركم الله نفسه، فإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لذلك فإن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كريم.

وأما الثاني فهو الإشفاق من الساعة؛ فإن الساعة أدهىٰ وأَمَرُّ من كل داهيةٍ وشرّ، وهي التي يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، بينما الذين آمنوا مشفقون منها، ويعلمون أنها الحق.

إن هذا الإشفاق بنوعيه هو السرُّ في الفوز بالجنة التي أُعِدَّتْ للمتقين، وهي التي يرثها من عباد الله مَنْ كان تقيًا؛ وقد جاء في سورة الطور: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ. فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ. وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ. وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ. وَأَقْبَلَ

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ. فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الآيات: ١٧ – ٢٨]

وقد رغبتُ في نقل هذه القطعة بكاملها مع أن الإشفاق قد ورد في آخرها؛ لأنها تخاطب الصائمين بوصف المتقين، وتؤكد أنهم في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم، ويدخل في التفكه الاشتغال بقطف الثمار، وافتضاض الأبكار، فقد جاء في سورة يس: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [الآيتان: ٥٥– ٥٦]

وإن من إكرام المتقين أن يقال لهم: «كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون»؛ أي كلوا فقد جعتم في صيامكم وزُحُوفكم، واشربوا فقد عطشتم في كثيرٍ من تكاليف الأمانة التي عُرِضَتْ علىٰ السموات والأرض والجبال، فَأَبَيْنَ أن يحملْنها، وأشفقن منها، وإن الصائمين أصحاب باب الريان هم أحقُّ المؤمنين بهذا الإكرام.

هذا فيما يتعلق بشهوة البطون، أما شهوة الغريزة فأخبر أنهم قد زُوِّجوا في الجنة بالحور العين، وهُنَّ الفائقات الجمال؛ إذِ الحور يعني البياض المَشوب بحمرةٍ، وهُنَّ الشقراوات، بينما العِين هُنَّ واسعات العيون، وهذا يضفي عليهن جمالاً إلىٰ حسنهن، فَهُنَّ خيراتٌ حِسَان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌّ، كأنهم الياقوت والمرجان، وقد جعلهن ربنا أبكاراً، عُرُبًا أترابًا، وهن قاصرات الطَّرْف، أو مقصوراتٌ في الخيام.

وبعد أن مَتَّعَ الآباء برفع أبنائهم إلىٰ درجاتهم؛ ليستمتعوا بدوام صحبتهم في درجات الجنان دون أن يخفض من منازل الآباء، عاد لِيَذْكُرَ شيئًا من التفصيل لبعض الأطعمة والأشربة، فإذا هي الفاكهة واللحم، ثم كأس الخمر التي لا

تُحْدث اللغو، ولا توقع في الإثم؛ لأنها لا تغتال العقول، ولا تستنزف الشهوة، فلا يُصَدَّعون عنها ولا ينزفون.

أما الفاكهة فهي كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، كلما رُزِقوا منها من ثمرٍ رزقًا قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل، وأُتُوا به متشابهًا، ويطوف عليهم به غلمانٌ لهم كأنهم من جمالهم لؤلؤ مكنون، وهم من كثرتهم إذا رأيتهم حسبتَهم لؤلؤاً منثوراً.

وأما اللحم فهو الحُنيذ المشويّ، ويدخل فيه لحم الطير مما تشتهون دخولاً أوليًا، وحسبكم إذا اشتهيتم شيئًا أن تقولوا: سبحانك اللهمَّ، فإذا فرغتم من تناوله كان آخر دعواكم أن الحمد لله رب العالمين، وإن الجنة أُكُلُها دائمٌ وظلها، تلك عقبىٰ الذين اتقوا، وعقبىٰ الكافرين النار.

وقد تأكد أن الإشفاق من عذاب الله مَهْرُ الجنة أن عز وجل جعل المتقين في جنات مكرمين، وذكر من صفاتهم ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧- ٢٨]

وحسب أهل الجنة أن يكونوا في دنياهم قد شابهوا الملائكة، أو اقتدوا بهم في هذه الصفة، قال سبحانه في نَعْتِ الملائكة:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ -٢٨]

ولا بد هنا أن نتساءل عن الترجمة العملية للإشفاق من الساعة، والخشية من الله، حين تسيطر علىٰ قلوب المؤمنين؟

وللإجابة علىٰ هذا السؤال نذهب سويًا إلىٰ سورة المؤمنون؛ لنقرأ فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ

بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [الآيات: ٥٧ – ٦١]

ذلك أن نوعي الخشية قد دفعهم إلىٰ المسارعة في الخيرات، والمسابقة لها، ووجه ذلك أن الذي يُشفق من عدم قبول الطاعة يدفعه ذلك للمزيد منها؛ عسىٰ أن يُقْبَلَ اليسير منها؛ فإنما يتقبل الله من المتقين، وهو ما ينجو من محبطات الأعمال؛ كاختلال الإخلاص، أو نقصان الأركان، أو فوات الشروط، وغير ذلك من نواقض الطاعة.

فإذا اجتهدنا في تنزيل ذلك علىٰ الصائمين كان المتقون المشفقون من الساعة الذين يخشون ربَّهم بالغيب، هم الذين يَوْجَلون من عدم قبول الصيام والقيام، فيدفعهم ذلك إلىٰ مضاعفة العبادة، فلا يفرطون في ستةٍ من شوال، ولا في ثلاثةٍ من كلِّ شهر، أو اثنين من كل أسبوع، كما يحرصون علىٰ قيام الليل، ثم الاستغفار بالأسحار، وقد أُمِرْتَ أن إذا فرغتَ فَانصَبْ، وإلىٰ ربك فارغب؛ أي إذا فرغتَ من فريضة فانصب في نافلتها، وإذا فرغت من نافلتها فَالْتَفِتْ إلىٰ فريضة أخرىٰ، ومعها النافلة القبلية أو البعدية، فمن فعل ذلك كان من المشفقين حقيقة، وإلَّا كانت دعوىٰ باللسان، لا رصيد لها في الواقع.

إن أضعف الإيمان في حقِّ الصائمين أن يصوموا عن المحرمات المؤبدة، فلا يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، ولا يُدلُوا بها إلىٰ الحكام؛ ليأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون.

إن الذين لا يشفقون في الدنيا؛ اغتراراً بالأعمال قد يكونون من الوجوه الخاشعة العاملة الناصبة التي تَصْلىٰ ناراً حامية، تسقىٰ من عينٍ آنية، ليس لهم طعامٌ إلا من ضريعٍ، لا يُسمن ولا يُغني من جوع، وحالتئذٍ سيشفقون في الآخرة؛ فإنه إذا وُضع الكتاب رأيتَ المجرمين مشفقين مما فيه، كما أنك ترىٰ الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم، بينما الذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات،

لهم ما يشاؤون عند ربهم، وإذا كان الذين آمنوا يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ فإن الآخرين الذين لا يصومون يقال لهم توبيخًا: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا؛ إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، فهم إنما يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، لذلك ذرهم يأكلوا ويتمتعوا، ويُلهِهِم الأمل، فسوف يعلمون أيَّ منقلب ينقلبون، ما لم يسارعوا إلىٰ المغفرة والتوبة؛ فإنه لن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها، ولن ينفعهم وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم أن يقولوا: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعملْ صالحًا؛ إنا موقنون.

والحمد لله علىٰ الصيام والقيام والعيد الجديد

الصيام تدريب للجوارح
على الفطام عن الحرام على الدوام

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]

يشدُّ الانتباهَ مجيءُ هذه الآية بعد أحكام الصيام مباشرة في سورة البقرة، وقد علَّق عليها العلماء بأنها انتقالٌ في التشريع من وجوب الصوم المؤقت عمَّا أحلَّ الله من الطيبات المتعلقة بالبطون والفروج إلىٰ فريضة الصوم المؤبد عن محارم الله، غير أن التعبير بالنهي عن الأكل سِرُّه أن الطعام هو المقصود الأول للإنسان من امتلاك المال، وإلَّا فإن النهي يتناول جميع التصرفات التي تُنفق فيها أموال الناس بالباطل، ولو لم تكن أكلاً وطعاماً.

إن الآية تنهىٰ عن أكل الأموال بالباطل الذي يظهر في صورة الحقِّ شكلاً؛ فإن الإدلاء بها إلىٰ الحكام، وتزويرَ البَيِّنات والشهادات، أو بالرشاوىٰ والإتاوات، يُظهرها كما لو كانت حقوقاً لآكليها، مع أن حكم القضاة لا يُحلُّ حراماً، ولا يُحَرِّمُ حلالاً؛ إنما يقطع الخصومات في الدنيا، ولكنه في الآخرة قطعةٌ من النار، فمن شاء أخذها، ومن شاء تركها؛ لأن بعضهم قد يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض، أو كان ممن لا يشفق من لعنة الله للراشي والمرتشي والرائشِ بينهما.

إن القرآن الكريم قد توعد الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمناً قليلاً بقوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة (١٧٤)

كما توعد الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً بأنهم إنما يأكلون في بطونهم ناراً،

وسيصلون سعيراً؛ كما في الآية (١٠) من سورة النساء.

فإذا ذهبنا إلىٰ الربا وجدناه الذنبَ الوحيدَ الذي أعلن فيه الجبَّار جل جلاله الحربَ علىٰ آكليه في القرآن، وهو يشمل كذلك مُوكِلَه وكاتبَه وشاهديه، وهم سواء في هذه الموبقة، ما داموا مُصِرِّين علىٰ هذا الحِنْث العظيم، ولم يتقوا الله، ولم يذروا ما بقي من الربا، فكيف بالذين يأكلونه أضعافاً مضاعفةً؟!!

والسؤال هنا: هل توعد القرآن الكريم المفطر في رمضان بما توعد به هؤلاء المجترئين علىٰ أكل أموال الناس بالباطل؟!، وما قيمة الصيام إذاً، حتىٰ لو صاموا، إذا كانوا يُمسكون عمَّا أحلَّ الله، ويفطرون علىٰ ما حرَّم الله؟!!.

إن هناك ذنوباً كثيرةً تُرتكب بالجوارح الأخرىٰ غير الأمعاء، وهي أشدُّ إثماً من المفطر في رمضان، ألم يخبرْ عن المنتهكين أعراض إخوانهم بِالغِيبةِ ونحوها أنهم كمن يحبُّ أن يأكل لحم أخيه ميتاً؛ كما في سورة الحجرات (١٢)، وإن الفرق هائل بين من يأكل طعاماً في رمضان وقد يكون مشفقاً من الافتضاح، ومن يأكل لحم شقيقه المتوفىٰ وهو محبٌّ، أيْ مستطيبٌ مستلذّ!!.

ألم يَذُمَّ الله جلَّ جلاله المنافقين من الرعب واليهود الذين قالوا: آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم؛ بأنهم سمَّاعون للكذب أكَّالون للسُّحت، كما في سورة المائدة (٤١، ٤٢)، وظاهره المساواة بين سماع الكذب والمحرمات وأكلِ السحت، وهو كلُّ حرامٍ يَسْحَتُ صاحبه بالعذاب، وقد خاب من افترىٰ.

ومن المعلوم أن اليهود قد أخذوا الربا، وقد نُهُوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، حتىٰ إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله، ولبئس ما كانوا يصنعون!!، ولا شكَّ أن ذلك أنكىٰ من الفِطْر في رمضان علىٰ مباحاتٍ، حَرُمَتْ مؤقتاً في أيام معدودات، ولكنَّ ذلك غير مستهجنٍ ممن

اعتدوا في السبت للحرمان من الحيتان، فَلُعِنوا علىٰ لسان داوود عليه السلام، فقيل لهم: كونوا قردةً خاسئين، ثم لُعِنوا علىٰ لسان عيسىٰ بنِ مريم، فَمُسِخُوا خنازير؛ لمَّا أحسَّ عيسىٰ منهم الكفر بعد نزول المائدة من السماء، بناءً علىٰ طلبهم وإصرارهم، وقد تأذَّن ربك ليبعثنَّ عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا، فهم وأمثالهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، ويقال لهم: كلوا وتمتعوا قليلاً؛ إنكم مجرمون، بل قال الله جل وعلا لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]

وعلىٰ ذكر المتاع والشهوة الغريزية أذكر هنا أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد أخبر عن زنىٰ الجوارح، فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه الكلام، واليد تزني، وزناها البطش، والرِّجْل تزني، وزناها المشي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه، ولذلك فإن الصائم حين يرتكب الجرائم بتلك الجوارح لن يناله من صومه إلَّا الجوع والعطش، ولن يزداد من الله إلا بُعْداً.

أما نحن -المؤمنين- فإن صيامنا وتقوانا يفتح الله به علينا بركاتٍ من السماء والأرض، فنأكل من فوقنا، ومن تحت أرجلنا، ثم يقال لنا يوم القيامة: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور١٩، المرسلات: ٤٣]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، فالجنة أُكُلُها دائمٌ وظلها، وفيها فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحُورٌ عينٌ، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أو البَيْضِ المكنون، أو الياقوت والمرجان، ورضوانٌ من الله أكبر، وأعظم منه لذة النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ.

والحمد لله الكبير علىٰ ما في الصوم من الخير الكثير.

الصوم المبرور
هو النفور من كل محظور

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]

جرت العادة عند تناول الصوم أن يكون الحديث عن أحكامه وحِكَمه، فيبدأ المتحدث بآيات الصيام من أولها، ولكني اليوم أبدأ الحديث من آخرها؛ ذلك أن هذه الآية هي الأولىٰ بعد خمس آيات فيها أمهات أحكام الصيام، فما العلاقة بين الأمر به والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن الإدلاء بها إلىٰ الحكام؟.

من المعلوم أن الله تبارك وتعالىٰ قد أذن لكم أن تأكلوا من طيبات ما رزقكم، وألا تتبعوا خطوات الشيطان، ثم استثنىٰ من إباحة الأكل مما في الأرض جميعـًا أكلاً مؤقتا، وأكلاً مؤبداً، وقيَّد به الإباحة المطلقة، فالمؤقت هو المفطِّرات؛ فإنها تحرم من الفجر إلىٰ الليل في أيام معدودات لمن شهد منكم الشهر الذي أنزل فيه القرآن.

وأما المؤبد فهو ما تناولته هذه الآية، وهو أكل أموال الناس بالباطل، سواء كان ذلك بالسرقة والغصب ونحوها، أو كان بواسطة الحكام والمحامين الوكلاء عن أصحاب القضايا، وهذه لها صورتان: أولهما أن يجحد حقوقـًا لا بينة لأهلها عليها، والآخرة أن يدفعها رشوة لقضاة السوء، فيأكل بواسطة المحاكم طائفة من أموال الناس بالإثم، ومنه شهادات الزور، والأيمان الغموس، أو الصلح علىٰ شطر ما يَدَّعي به ظلمـًا وزوراً، وهم يعلمون أنهم غير محقين، وهذا أقبح؛ فإن

من يأكل أموال الناس بالباطل وهو يعلم ألَّا كِفْلَ له منها يكون قد أكل سحتًا دون شبهة، وما يأكلون في بطونهم إلا النار.

وقبل تبيان وجه التداخل بين هذا النهي والصوم أودُّ التذكير بأن بني إسرائيل هم أشهر الناس في أكل أموال الناس بالباطل، فقد حَرَّم الله عز وجل عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم لأسباب، منها أخذهم الربا وقد نُهُوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وقد استشرىٰ فيهم ذاك الخُلُق الذميم حتىٰ تورَّط فيه كثير من الأحبار والرهبان، أولئك الذين كانوا يصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله، واقرأوا ذلك في سورتي النساء (١٦)، والتوبة (٣٤).

وقد نهانا مولانا في هذه الآية أن تَزِلَّ أقدامنا بعد ثبوتها في المزالق التي انحدر فيها بنو إسرائيل، ثم عاد وأكَّد هذا في سورة النساء بعد الحديث عن أموال اليتامىٰ، وميراث النساء، والمهور، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾ [النساء: ٢٩].

ولا مرية في أن أكل الأموال المعصومة بالباطل يتناول جميع صور الأكل ظاهرة وباطنة من الغش والغبن والغَرَر والغَصْب وغيرها، وقد حذَّر النبي عليه الصلاة والسلام من أنه يقطع قطعة من النار لمن كان أَلْحَنَ بحجته من أخيه، فقضىٰ له علىٰ نحو ما سمع، وهو يعلم أنه قد قضىٰ له بحقِّ أخيه، فإن شاء تركها، كما أن من اقتطع حق أخيه بيمينه الكاذبة يكون قد اشترىٰ بعهد الله وأيمانه ثمنًا قليلاً، فاستحق أن يكون في زمرة من لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، حتىٰ لو كانت اليمين علىٰ قضيب من أَرَاكٍ أو سِواك، ، وما شابهه من محقرات الأموال التي تُباع بثمنٍ بخسٍ، ولا تأسىٰ لفقدها النفس.

إنَّ مجيء هذا النهي بعد آيات الصيام انتقال من النهي عن تحريم الأكل المؤقت إلىٰ تحريم الأكل المؤبد، فإن المحرمات الدائمة لا تحل بالليل إذا

سجىٰ، ولا بالشهر إذ أدبر، أو شوال إذا أسفر، وفي ذلك حكمة بالغة، فما كان الفطام بالصيام إلا تدريباً علىٰ هجر المحرمات المؤبدة، ذلك أن الإنسان قد خلق ضعيفاً أمام وَخْزِ الجوع، أو ثورة الغريزة، فإذا انتصر عليها بالصيام فَرْضِهِ ونَفْلِهِ؛ كان أنْ ينتصرَ علىٰ ما وراءه من شهوات النفس الأمَّارة بالسوء، أو خطوات الشيطان الذي يزين للمرء سوء عمله، من باب أولىٰ، ومن هنا فمن لم يَدَعْ قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يَدَعَ طعامه وشرابه، والصوم الحقيقي هو إمساك الجوارح عن المحرمات المؤبدة، فإن هَتْكَ الشهر بها أشد من الوقوع علىٰ الطعام والشراب، أو الوقاع علىٰ أزواجهم وما ملكت أيمانهم.

ويجدر بنا هنا أن نقف عند طائفة من المنكرات المعاصرة؛ ليكون الصيام عنها برهاناً علىٰ أننا نصوم إيماناً واحتساباً ونحن مدركون غرض ربنا من تكليفنا بما كلَّف به من قبلنا من المؤمنين.

ومن ذلك وجوب الصوم عن أسباب الفرقة والانقسام، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، كما أنكم إن تنازعتم فشلتم، وذهبت ريحكم، ولا شك أن الإفطار علىٰ الخبز والخضار لا يجلب للأمة الفشل بالكلية، ولا يذهب ريحها بالمرة، وإن كان يسبب صَدْعاً في البنيان المرصوص؛ ذلك أن أهل بدرٍ ما انتصروا وهم أذلة إلا لأنهم قد ائتلفت قلوبهم ائتلافاً لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفتَ بين قلوبهم علىٰ تلك الشاكلة، ولكن الله ألَّف بينهم بأخوة الإيمان، والاجتماع علىٰ الطاعة؛ والتجافي عن المعاصي، فإن الفتنة والعقوبة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، لذلك فقد تواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، كما تواصوا بالمرحمة.

ولعل جريمة الفرقة والاختلاف قد تولدت عن موبقةٍ أخرىٰ، هي الولاء للأعداء، فقد سَوَّل الصهاينة لزبائن أوسلو أنهم بالتعاون الأمني معهم ستفتح عليهم خزائن أمريكا، وكنوز أوروبا، وأودية المال عند المخترات العربية، وما

دَرَوْا أن اليهود إذا كان لهم نصيب من الملك لا يؤتون الناس نقيراً، بل يحسدون الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله، فهذا مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي تلتقي فيه الخبرات اليهودية مع الخيرات العربية، ومع الأيدي العاملة الفلسطينية، لنصنع هنا سَبَأً ثانية، جنتين عن يمين وشمال، من أعناب، وحففناهما بنخل، وجعلنا بينهما زرعًا، وفجرنا خلالهما نهراً، فتؤتي أكلها ضعفين، ويظنُّ أهلها أنهم قادرون عليها، ولن تبيد أبداً، ولكن ذلك الولاء قد أذاقهم به الله لباس الجوع والخوف، وبدَّلهم به جنتين ذواتي أُكُلٍ خَمْط، وأثل، وشيءٍ من سدرٍ قليل، وكان مثلهم في ذلك كرجلٍ أصابه الكبر، ولَه ذرية ضعفاء، فأصاب جنته إعصار فيه نار فاحترقت، كالأعاصير التي تضرب بعض الولايات الأمريكية هذه الأيام بما كانوا يصنعون.

إن أهم ما ينبغي أن نصوم عنه هو أكل الرواتب بالباطل، حين يقوم إخوان الذين كفروا من أهل الكتاب بتكليف الموالين لهم، والمضبوعين من سياستهم، أن يُضْرِبوا عن العمل، ويأخذوا رواتبهم وهم قاعدون، إفساداً للعلم والجسم، وهما ركنا القوة، وهم بهذا لا يأكلون سحتًا بَحْتًا، بل يسهمون في تجهيلنا وإضعافنا، فيرتكبون الجريمة الكبرىٰ ضد المجتمع كله، لذلك فالواجب أن ننصح لهم بأن شيطان الإنس والجن يريد أن يغويهم، فإما أبصروا وأنابوا، وإلا فلا تَأْسَ علىٰ القوم الفاسقين.

اللهم اهدِ قومنا فإنهم لا يعلمون.

الصيام جنة من إغراء إبليس بالانهزام أمام امرأة العزيز أو هدية بلقيس

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

حلَّ علينا شهر رمضان هذا العام ونحن أكثر طمأنينة إلىٰ أننا ذاهبون إلىٰ النصر والتحرير، فقد بلغ السقوط السياسي لسلطة رام الله حَدّاً لا يَقْبَلُ به إلا من فقد كرامته أو آدميته؛ فإن الذين غَلَبوا علىٰ أمرهم يقولون أن لا جدوىٰ من وراء المفاوضات مباشرة أو غير مباشرة، واليوم هناك مقايضة الدعم المادي بالذهاب إلىٰ المفاوضات المباشرة بعد ثمانية عشر عاماً لم يَبْقَ فيها لأولئك المفاوضين غير ورقة التوت ليتنازلوا عنها في مقابل رغيف الخبز الذي لا زال إِدَامُهُ من دماء الشهداء، ودموع اليتامىٰ والأرامل والثكالىٰ، علىٰ وَقْعِ أنين الأسرىٰ والجرحىٰ والمشردين، وإن قائمة مطالب الصهاينة لا حدود لها، بل لا نهاية لها في مقابل الوعود بتسهيلات شكلية، ويمضي الاحتلال في التهويد، والْتهام الأرض، ومصادرة المقدسات، وإجراء المناورات؛ استعداداً لمزيد من الحرب والعدوان.

إن فشل السلطة في تحقيق أي إنجاز إلا المطاردة والاعتقال، والتعذيب، وإذلال الناس بالتوازي والتعاون مع الاحتلال يعني حالة من الاحتقان تنذر بالانفجار الأعنف مما اجتالهم في غزة من قبل، فإذا انضاف إلىٰ ذلك تنفيذ التلويح بقطع المساعدات، أو رفع غطاء الشرعية المزيفة عنهم، أو حتىٰ اعتبارهم مقصرين في تحقيق المطالب الأمنية التي تعهدوا بها، كان أولئك المرتمون تحت أقدام الاحتلال في وضعٍ لا يحسدون عليه، وسيجدون أنفسهم

مضطرين إلىٰ الاحتماء بالناس الذين اضطهدوهم من أجل عيون الصهاينة من قبل، أو بالمقاومة التي طالما اكتوتْ بتعاونهم الأمني مع اليهود، ويومها سيقعون بين المطرقة والسندان، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون، وما ظَلمهم الله، ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون.

ولعل الأسوأ حظاً منهم هم الزعامات العربية التي تعطي الغطاء للمفاوضات المباشرة؛ رضوخاً للأمريكان والصهاينة علىٰ حدٍّ سواء، ومن خلال لجنة المتابعة العربية.

ذلك أن أسيادهم الأمريكان يوشك أن يهربوا من العراق وأفغانستان، وبعد أن بدأ التحالف الفاشل يتفكك، فقد قررت القوات الهولندية وغيرها الهروب من هناك علىٰ وَقْعِ الضربات اليومية التي تلتهم المزيد من القتلىٰ في صفوفهم في منحىً تصاعدي خطير، فإذا حصل ذلك قامت الشعوب علىٰ حكامها الظلمة، فأطاحوا بهم، خاصة وأن الأمريكان أنفسهم يعترفون بأن الجهاد اليوم الذي يسمونه (القاعدة) هو أقوىٰ منه قبل سبع سنين حين غزوا ديار الإسلام باسم القضاء علىٰ الإرهاب.

من كان يتصور أن الجيش اللبناني – المسيحي القيادة والعقيدة- سوف يتصدىٰ للتوغل الصهيوني في الجنوب، ويوقع فيه القتلىٰ، دون شراكة المقاومة؟!، ومن كان يتصور أن الصواريخ التي انهمرت علىٰ مدينة إيلات الصهيونية ستكون من أرض الأحباب في النظام المصري؟!، إنه التغيير الواضح لصالح المقاومة والممانعة، والانتكاس الكبير للمشروع الصهيوني والداعمين له، ولا زالت الأيام تُخَبِّئ المزيد من المفاجآت التي تزيد المقاومة صعوداً، والاحتلال تقهقراً، وتضيف للمنافقين رجساً إلىٰ رجسهم.

أما آية الصيام فتنبئ المؤمنين بوجوب الصوم عليهم، كما كتب علىٰ جميع من قبلهم من الأمم، وأن الله تبارك وتعالىٰ قد أراد بهذا التكليف أن يمتحن قلوبهم

للتقوىٰ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها، والعاقبة للتقوىٰ، والآخرة عند ربك للمتقين، فالجنة عرضها السموات والأرض، أُعِدَّتْ للمتقين.

إن التقوىٰ لفظ لكل ما يُتَوقىٰ به من شرور الدنيا والآخرة، ولعل أخطر ما في الأمر أن الشهوتين اللتين أُمِرْنا بالإمساك عنهما عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ليلة الصيام إلىٰ الليل في أيام معدودات؛ هما السرُّ في شقاء البشر من لدن آدم، وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ألم يكن آدم في جنةٍ له فيها ألاَّ يجوع ولا يَعْرَىٰ، وأنه لا يظمأ فيها ولا يَضْحَىٰ، باستثناء شجرة بعينها لا يحلُّ له قربانها، فضلاً عن تناول شيءٍ من ثمارها؟!، ولسوف يحاول إبليس أن يُزَيِّنَ لك ولزوجك أن تأكلا منها؛ لتشقىٰ، وليبدي لهما ما وُورِيَ عنهما من سوءاتهما، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وكانت العاقبة هي الخروج من الجنة؛ ليصبح الحصول علىٰ الحاجات بِشِقِّ الأنفس.

ثم ألم يكن دافع قابيل لقتل أخيه هابيل هو حسده له أن كانت مخطوبته وضيئة، فَسَوَّلتْ له نفسه قتل أخيه فقتله؛ ليفوز بها؛ لكنه أصبح من النادمين، ومن الخاسرين، ومن يومها والقتل واقع بنا؟!.

ولعل أكثر الأمم شقاءً باجتماع هاتين الشهوتين فيهم هم بنو إسرائيل، فقد فُضِّلوا يومًا علىٰ العالمين، فقد آتاهم الله الكتاب والحُكْمَ والنبوة، واختارهم علىٰ علمٍ علىٰ العالمين، وجعل منهم أئمةً يهدون بأمره؛ لما صبروا، وكانوا بآياته يوقنون، كما كان فيهم أمة يَهْدُونَ بالحق، وبه يَعْدِلُون، فطهروا بيت المقدس من القوم الجبارين، كما كان منهم الفئة القليلة التي ثبتتْ مع طالوت، فهزموا جالوت وجنوده، وكانوا مائة ألفٍ أو يزيدون.

لكن بعض الأجيال المتراخية قد تَوَحَّلُوا في الفواحش، وأكلوا أموال الناس

بالباطل؛ ذلك أن نبينا عليه الصلاة والسلام حين حذرنا من الدنيا حذرنا من النساء، وأخبرنا أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وقد وصل بهم الانحراف من بعد إلىٰ الكفر بآيات الله، وإلىٰ قتل النبيين بغير حَقٍّ، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس.

أما الشهوة الأخرىٰ فقد ظهرت هزيمتهم أمامها منذ قالوا لسيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام: لن نصبر علىٰ طعام واحد، وطلبوا أطعمةً بُقُوليةً وخضرواتٍ بديلاً عن المَنِّ والسلوىٰ، كما أنهم جحدوا من بعد معجزات سيدنا عيسىٰ عليه الصلاة السلام، وطلبوا إنزال مائدة من السماء؛ ليأكلوا منها، وتطمئن قلوبهم، ويتأكدوا أنْ قد صدقهم في ادِّعاء النبوة.

وقد جَرَّ عليهم ذلك حرمانهم من بعض الطيبات بتحريمها عليهم، يوم أخذوا الربا، وقد نُهُوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وقد سَرَىٰ هذا السلوك المشين إلىٰ كثيرٍ من الأحبار والرهبان، فهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله.

وقد جَرَّ عليهم اجتراؤهم علىٰ بعض المحرمات من المطعومات أنْ قيل لهم: كونوا قردة خاسئين، فقد اعتدوا في السبت، واحتالوا لصيد السمك برمي شباكهم فيه، وإخراجها يوم الأحد، فَلُعِنوا علىٰ لسان داوود، فَمُسِخوا قردة، كما أن الذين كفروا بعيسىٰ بعد نزول المائدة لُعِنوا علىٰ لسانه فَطُمِسَتْ آدميتهم، وصاروا خنازير.

لقد تفرد قوم لوطٍ بإتيان الذكران، فجعل الله عز وجل قراهم عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما انهزمت امرأة العزيز أمام جمال سيدنا يوسف، لكنه استعصم، وآثر السجن، ومكث فيه بضع سنين.

كما تفرد قوم شعيب بتطفيف الكيل، وبخس الميزان، فأخذتهم الرجفة،

وأخذهم عذاب يوم الظُّلة، كما أُهْلِكَ قارون بأن خسف الله به وبداره الأرض.

ولا زالت هاتان الشهوتان حين تسيطران علىٰ أمةٍ تُرْدِيها أسفل سافلين، فقد كنا خير أمة أخرجت للناس، لكننا اليوم نسمىٰ بدول العالم الثالث، وما ذلك إلا بسبب رَتْعِ الحكام والذين أَوَوْا إلىٰ حظيرتهم، في الأموال والفواحش، فَأَحَلُّوا قومهم دار البوار، وحين نبتتْ فينا فئة قليلة من الصائمين القائمين الذين يتطلعون إلىٰ جنةٍ عرضها السماوات والأرض؛ أذاقت الاحتلال الصهيوني والأمريكي وبال أمرهم، ولسوف تكون عاقبة أمرهم خُسْرا.

رمضانُ قد آب، مبشِّراً بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب، وبقاصراتِ الطَّرْفِ أَتْراب

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]

يذهب كثير من الخطباء والواعظين للتركيز علىٰ فضائل الصيام في مثل هذه الأيام، وجريـًا علىٰ دأبهم هذا أتناول اليوم بعض تلك الفضائل، لا فيما يحصل في الدنيا، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، ولكنْ في بعض النعيم الذي أعدَّه الله للمؤمنين الصائمين في الجنة، خاصة ما كان من أنواع الطعام، وألوان الشراب، في مقابل تركهم طعامهم وشرابهم إيمانـًا بالفريضة؛ بل بالركن الرابع للإسلام، وأن لله الحكمةَ البالغةَ في إيجابه، واحتسابـًا لوجه الله تعالىٰ، فلا يبتغون به غير المغفرة والجنة، ورضوانِ الله الأكبر، وليكون عونـًا لهم علىٰ التقوىٰ؛ فإنه جُنَّةٌ ووقاية من كثير من شرور الدنيا.

إن آية المقال تخبر بامتنان الله علىٰ عباده الذين يُؤْتَىٰ كلُّ واحدٍ منهم كتابه بيمينه؛ لأنه أراد الآخرة، وسعىٰ لها سعيها وهو مؤمن؛ إذْ يقال لهم وهم في جنة عالية، قُطوفها دانية: (كلوا واشربوا هنيئـًا بما أسلفتم في الأيام الخالية)، وهي أيام الدنيا التي خلق الله عز وجل فيها الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً، ومن أجل ذلك فقد أصابهم الظمأ والنصب والمخمصة، فَكُتِبَ لهم به عملٌ صالح؛ إن الله لا يضيع أجر المحسنين، ولذلك يقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩، والمرسلات: ٤٣].

إن هذه الآيات جاءت مجملةً في التنعُّم بالطعام والشَّراب، فلم تبيِّن ماذا يأكلون، وماذا يشربون، وفي هذا المقال أَتَتَبَّعُ أبرز ما ورد من صنوف الأطعمة

والأشربة التي وَعَدَ الرحمن عباده بالغيب؛ إنه كان وَعْدُهُ مأتيـًا، ودعونا نبدأْ بالأُكُل:

إن أول طعام يأكله أهل الجنة هو زيادة كبد الحوت، وإذا كان عموم السمك لحمـًا طريـًا؛ فما بالكم بالكبد منه؟!، وكيف إذا كان المقدَّم منه هو زيادةَ الكبد، والظاهر أنها أشهىٰ شيءٍ فيه.

ثم إن لهم فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، ولا غرض لي هنا بالتعريج المبين علىٰ مفاتن الحور العين اللائي هُنَّ كأمثال اللؤلؤ المكنون جمالاً وصفاءً، كأنهن الياقوت والمَرْجان، مع أن الصائمين جديرون أن يُبَشَّروا فيها بأزواجٍ مطهرةٍ قاصراتِ الطَّرفِ أَتْراب، فقد كانوا لفروجهم حافظين، حتىٰ علىٰ أزواجهم وما ملكت أيمانهم، وبالأحرىٰ فإنهم لا يبتغون ما وراء ذلك، وتلك حدود الله فلا تقربوها.

أما الفاكهة فهي كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقد عَدَّ منها السِّدْرَ المخضوض، والطَّلْحَ المنضود، كما ذكر النخل والرمان، بل فيها من كلِّ فاكهةٍ زوجان، ومن هنا فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقـًا قالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قبلُ، وأُتُوا به متشابهـًا، ولهم فيها من كلِّ الثمرات، ومغفرةٌ من ربِّهم، ولهم فيها فاكهة كثيرة، منها يأكلون، ومهما أَكَلوا فلن تَنْفَدَ شهيتهم للمزيد؛ فإنهم إذا ملؤوا البطون كان خراجهم رشحـًا تَتَشَرَّبُه حلل السندس والإستبرق، وهو أطيب من ريح المسك، فإذا هي خِماصٌ، ومتىٰ اشتهىٰ أحدهم نوعـًا من الفاكهة وجد قطوفها دانيةً، فقد ذُلِّلَتْ قطوفها تذليلاً، ولن يحتاج أن يعتدل من الاتكاء علىٰ الأرائك، فهم في شُغُل فاكهون، ومنه قطف الثمار، وافتضاض الأكابر، فقد أنشأهن الله إنشاءً، فجعلهنَّ أبكاراً، عُرُبـًا أترابـًا.

وأما اللحوم فهي قاصرة علىٰ الطيور دون بهيمة الأنعام؛ لأنها ألذُّ من الضأن والمعز، فضلاً عن الإبل والبقر، وقد جاء في الأثر أن أحداً من أهل الجنة إذا رأىٰ

طيراً في جَوِّ الجنة، فاشتهاه، فما عليه إلا أن يتلفَّظ بكلمتين: «سبحانك اللهم» حتىٰ يجده يَخِرُّ مَشْوِيًّا بين يديه، وقد دلَّ لذلك قوله تعالىٰ:

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]

فإن أول دعائهم (سبحانك اللهم)، وهم يختمون أكلهم بحمد الله تعالىٰ، وهم لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً، ولهم رزقهم فيها بُكرةً وعشياً.

وأما الشراب فهو أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمه، وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّىٰ، فضلاً عن عيون الكافور، والسلسبيل، والتسنيم التي يُفَجِّرونها في الجنة حيث يشاؤون تفجيراً، والمقربون لهم جنتان، فيهما عينان تجريان، وأما الأبرار فلهم من دونهما جنتان، فيهما عينان نَضَّاختان، ويطوف عليهم غِلْمانٌ لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون، فهم مُخَلَّدون، إذا رأيتَهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، وهم يطوفون بأكوابٍ وأباريق، وكأسٍ من معين، ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضةٍ، وأكوابٍ كانت قواريراً، قواريرَ من فضةٍ قَدَّروها تقديراً، وهم يَدْعُونَ فيها بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب.

إن مَنْ أيقنَ أن هذه هي الجنة التي يُورثها الله من عباده مَنْ كان تقياً وَدَّ لو أن رمضان كان السَّنَةَ كلَّها، وإنما يوفَّىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب، وإن الصوم نصف الصبر، بينما المجرمون يقال لهم في هذه الحياة الدنيا: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، فهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، بل قال الله عز وجل عنهم: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]

والعياذ بالله تعالىٰ أن يأتي رمضان فلا ندخل به الجنان، أو أن نكون علىٰ شفا حفرة من النيران، وتقبل الله منا ومنكم القُرُبات.

جزاء الصائمين قد يرتقي إلى سبعين من الحُورِ العِين

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ. هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَىٰ الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [سورة يس: ٥٥، ٥٦]

في مقال سابق كنت قد تناولت نعيم أهل الجنة في مطاعمهم ومشاربهم؛ تأويلاً لقوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ بمناسبة تَرْكِنا طعامنا وشرابنا في رمضان، وفي نافلة الصيام، ولما كان ركن الصيام قائماً علىٰ ترك الرفث والمباشرة مع هجر الطعام والشراب من الفجر إلىٰ الليل؛ أضحىٰ من اللازم التعريج علىٰ ما أنشأه الله تبارك وتعالىٰ لكم من اللذة النفسية والغريزية بالحور العين، وقد جمع القرآن لهن هاتين الصفتين في قوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، أي خيرات الأخلاق حِسان الوجوه، فالأُولىٰ لمتعة النفس، والثانية لِقُرَّةِ العين، والإثارة، ولما كانت بهجة النفس أسمىٰ من لذة الجسد تقدَّم الخُلُقُ علىٰ الجمال.

هذا وقد ورد ذكر نساء الجنان فيما لا يقلُّ عن خمسةَ عشرَ موضعاً في القرآن، حَشَدَ فيها ما لا ينقص عن ثماني صفات لأولئك القاصرات الطرف اللائي لم يطمثهن إنس قبلنا ولا جان، ومن تلك الصفات ما يلي:

(١) أزواج مطهرة، كما في سورة البقرة (٢٥)، وآل عمران (١٥)، والنساء (٥٧) ذلك أن طهارتهن نوعان: حسية ومعنوية، أما الحسية فإنهن مطهرات من كل نجس أو قذر مما هو موجود في نساء الدنيا، حتىٰ لو كُنَّ من التوابين ومن المتطهرين، فالدماء، والإفرازات، والبَخْرُ من الفم أو الفرج؛ فضلاً عن الريح

وغيره، مما يعكِّر صفو الاستمتاع بهن، بالإضافة إلىٰ طهارة ثيابهن من الاتِّساخ أو النجس، وبالأَوْلىٰ الأرائك والفُرُش التي بطائنها من إستبرق، وظواهرها من السندس.

وأما النُّعوتُ المعنوية فهي الطهارة من الأخلاق السيئة، والصفات الذميمة، فلا فسوقَ ولا جدالَ، ولا بذاءةَ ولا فُحش؛ وإن منها عدم التطلع لغير أزواجهن، فهنَّ قاصرات الطرف عِين، وهنَّ حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام، أيْ أنهن طاهرات مطهرات من الإثم والأذىٰ.

(٢) قاصرات الطرف، وقد وردت هذه الصفة في ثلاثة مواضع: الصافات (٤٨)، وسورة ص (٥٢)، والرحمن (٥٦) وهذه الصفة يراد بها مجموع معنيين:

الأول: عدم التطلع إلىٰ غير أزواجهن رِضـًا وقناعة؛ بل إعجابٌ وافتتان، فلا يَرَيْنَ أجمل منهم، لا خَلْقـًا ولا خُلُقـًا.

الثاني: قَصْرُهُنَّ طَرْفَ أزواجهن عليهن، فهنَّ من الجمال والأدب بحيث يَأْسِرْنَ قلوب الأزواج وأعينَهم عن أن يَرَوْا مَنْ هُنَّ أحسنُ منهن، وكأَنَّهُنَّ أجمل نساء الجنة، حتىٰ لو كُنَّ مقصوراتٍ في الخيام، لا قاصرات؛ أي أنَّ حياءَهن بتأثيرٍ خارجي؛ كالحياء من الله، لا بافتتانٍ ذاتيٍّ كنساء المقرَّبين.

(٣) الحور العين: وهن شديدات بياض الجزء الأبيض من العين، وشديدات سواد الجزء الأسود منها، مع سعة العيون، والسعة في العينين من مظاهر الجمال في ربَّات الحِجال، وانظر سورة الدخان (٥٤)، الطور (٢٠)، والرحمن (٧٢)، والواقعة (٢٢).

ولعل لفظ (الحور) مشتق من الحيرة؛ لأن زوجها يحار في جمالها؛ إذْ يرىٰ مُخَّ ساقها من وراء جلدها من الرقة والصفاء؛ بل جاء في الأثر أنه يرىٰ صورة وجهه في كبدها، وهي كذلك ترىٰ صورة وجهها في كبده.

(٤) البياض والصفاء لجلودهن، وقد ضرب المثل لهن بالياقوت والمرجان في سورة الرحمن (٥٨)، وبالبيض المكنون في سورة الصافات (٤٩) فهن كالياقوت صفاءً، والمرجان بياضاً لا يخلو من شُقْرة، وجلودهن في رقة غشاء البيضة مما يلي القشرة من داخلها، ولذلك كان شفافاً كالقوارير.

(٥) الكواعب الأتراب: وهنَّ الشابات حتىٰ إن أثداءهن مستديرة كحبة الرمان، ومن المعلوم أن أهل الجنة يَشِبُّون ولا يهرمون، ويكونون علىٰ سَنِّ سيدنا عيسىٰ بن مريم عليه السلام حين رفعه الله إليه في الثالثة والثلاثين، يتساوىٰ في ذلك الرجال والنساء، وهو معنىٰ الأتراب؛ إذْ أصل اشتقاقها من النزول من الأرحام إلىٰ التراب في زمنٍ واحد.

(٦) العُرُبُ الأتراب: وهن العاشقات لأزواجهن، المتحببات إليهم، ويظهر هذا في تغنجهنَّ وغنائهنَّ، ومن ذلك ما جاء في الأثر بشأنه: «نحنُ الخالداتُ فلا نموت، ونحنُ الناعماتُ فلا نَبْأَسُ أبداً، ونحن المقيماتُ فلا نَظْعَنُ أبداً، ونحن الراضياتُ فلا نَسْخَطُ أبداً، طُوبىٰ لمن كُنَّا له، وكان لنا»، وانظر في ذلك سورة الواقعة (٣٧)

(٧) لم يسبق لأحد أن وطئهنَّ، كما جاء في سورة الرحمن: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ الآيتان (٥٦، ٧٤)، والطمث هو الدم، فالآية تنفي عنهن أنهن قد تغشاهنَّ أحد من قبل، فأفضىٰ إلىٰ إسالة الدم منهن، وهذا أمتع للأزواج؛ حين يعلم أنه لم يسبقه أحدٌ إلىٰ الإفضاء لهن، بخلاف نساء الدنيا فقد سبق لهن المضاجعة.

(٨) كَوْنُهنَّ أبكاراً دائماً، إذْ بعد كلِّ وطءٍ تعود سيرتها الأُولىٰ؛ لتكون في كل مرة كما لو كانت في ليلة زفاف، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٤-٣٦].

إن هذه الصفة تعيدنا إلىٰ آية المقال التي تؤكد أن أهل الجنة في شُغُل يتفكهون به، فلا نَصَبَ فيه، ولا تعبَ، ولا لُغُوب، وأن ذلك الشغل يحصل لهم ولأزواجهم وهم علىٰ الأرائك متكئون، وقد فَسَّره العلماء بقطف الثمار، وافتضاض الأبكار، ولعل لفظ الظلال يشير إلىٰ الثمار، كما يشير لفظ الأرائك إلىٰ الوِقاع والجِماع.

بقي أن أذكر أن بعض أهل الجنة يصل عدد نسائه من الحور العين إلىٰ سبعين، مع ثنتين أخريين من نساء الدنيا، وأن هاتين الزوجتين تفوقان الحور العينَ جمالاً؛ بسبب الصلاة والصوم والطاعة، وأن الفرق بينهما وبين السبعين كالفرق بين ظِهارة الثوب وبطانته.

إحياء الليل والقيام في سائر العام يصنع أولي العزم المتشبهين بالملائكة الكرام

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]

مع صدور هذا العدد نكون قد اقتحمنا العشر الأواخر من رمضان، تلك الليالي المباركة، فقد كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يعتزل الدنيا فيها، حيث يعتكف في المسجد، فلا يخرج إلا لحاجة ماسة، وفي أقصر وقت؛ ليعود إلىٰ معتكفه وتفرغه للطاعة والعبادة؛ التماساً لليلة القدر.

وبناء عليه فقد اجتهدت في استقراء مقاصد قيام الليل، لا في الثلث الأخير من رمضان، ولا في الثلث الأخير من الليل؛ بل في عموم الحول، فهذه آية المقال تذكر أهمَّ أسباب وراثة المتقين لجناتٍ وعيون، ولأخذهم ما آتاهم ربهم من النعيم والتكريم؛ فإذا هو قيام أكثر الليل، وعند الاضطرار إلىٰ الاضجاع ينامون علىٰ قلق، ثم ينهضون مستغفرين، بالأسحار؛ خشية أن يكون الهجوع القليل قد فَوَّتَ عليهم ما يرجونه من الرحمة والجنة، أو يوقعهم فيما يحذرون من الآخرة والجحيم، فضلاً عن أن نعمة القيومية تستوجب قياماً دائماً لله، فهو القائم علىٰ كل نفسٍ بما كسبت، وهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

وما أشبه هذه الآية بما جاء في آل عمران الآية (١٧) في صفات من يستوجبون الجنان من الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، ذلك أن الله عز وجل ينزل في الثلث الأخير من الليل - نزولاً لا يعلم كنهه إلا هو- وإلىٰ السماء الدنيا يبسط يده قائلاً: هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائبٍ

فأتوب عليه، هل من سائل فأعطيه، هل من..، هل من..، حتىٰ يطلع الفجر!!.

ولعل أهم ما ينبغي التوقف عنده من مقاصد قيام الليل هو ما جاء في سورة المزمل من تعليل للأمر بقيام الليل، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زدْ عليه، ورتلِ القرآن ترتيلاً، فقد ذكر ثلاث عِلَلٍ لهذا التكليف الثقيل:

أولها: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ الآية (٥)، وقد عَرَضَ الله جلَّ جلاله أمانة التكليف علىٰ السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان؛ إنه كان ظلوماً جهولاً؛ ذلك أن هذا الدين رحمة الله للعالمين، وقد جعلنا خير أمة أخرجت للناس، فنحن المكلَّفون بإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وأن نأخذ بِحُجَزِهم عن النار، وهم علىٰ شفا حفرة منها، ومثلهم في الانجذاب إليها من خلال الشهوات والموبقات مثل الجنادب والفراش التي تنخدع بنور النار، فتقع فيها، وذلك يستوجب جيوشاً عظيمة من الدعاء الذين يخاطبون كل قوم بلسانهم، وبمنهج ثقافتهم، وإلىٰ جانبهم جيوش جرارة من الزاحفين يقاتلون الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة، حين يُدْعَوْنَ إلىٰ الإسلام فيرفضون، أو يُدْعَوْنَ إلىٰ كتاب الله ليحكم فيهم، فيأبون، ونحن لا نكره الناس حتىٰ يكونوا مؤمنين، فلا إكراه في الدين، إنما نريد أن تكون السيادة لله في الأرض؛ بأن تكون الشريعة هي الحاكمة، حين يقبل أهل الكتاب، ومَنْ في حكمهم، أن يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ثم يكون لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، إلا من أحكام يسيرة، منها عدم اشتراكهم في الدفاع عن الولاية التي يقطنون فيها، فقد أَجَرْناهم، وأخذنا منهم الجزية في مقابل توفير الأمن والأمان لهم.

وأما التعليل الثاني فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ الآية (٦)، ومعناها: إن ما تُنْشِؤُونه في الليل من القيام والترتيل تتواطأ عليه الجوارح، فتكونون أقدر علىٰ تدبره، واستنباط ما فيه من بَيِّنات الهدىٰ والفرقان؛ ذلك أن تلاوة اللسان تصل إلىٰ الآذان، فترسلها إلىٰ الجَنَان، ولما كان القلب

متفرغًا من الهموم والشواغل بالليل، فإنه يستجمع طاقته في تدبر القرآن، وهو كتاب أنزله الله مبارك؛ ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب، كما أن تلاوة الليل تُسْهم في تقويم اللسان بالقرآن؛ لكونه أقدر علىٰ مراعاة المخارج والصفات وعموم أحكام التجويد، بحكم تفرغ القلب لهذا الواجب.

وأما الثالث فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ الآية (٧) والمراد بذلك أن نهارك لدنياك تضرب في الأرض، وتمشي في مناكبها، وتبتغي من رزق الله، فاجعل ليلك لآخرتك قياماً وتلاوة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، فأفضل القيام قيام سيدنا داوود عليه السلام؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، فيقوم للفجر نشيطًا، ويستقبل نهاره مستريحا قوياً.

فإذا انتقلنا إلىٰ سورة الفرقان وجدناها تصف عباد الرحمن بأنهم يبيتون لربهم سجداً وقياماً؛ ليكون وسيلة لسؤال صَرْفِ عذاب جهنم عنهم؛ فإن عذابها كان غراماً، إنها ساءت مستقراً ومقاماً، فوقاهم الله شرَّ ذلك اليوم، وجعلهم يُلَقَّوْنَ في غُرَفِ الجنة تحية وسلاماً، خالدين فيها، حسنت مستقراً ومقاماً انظر الآيات (٦٤ – ٦٦).

وفي سورة السجدة ثناءٌ علىٰ الذين تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، وعلىٰ شاكلتها ما جاء في الزمر من المديح للقانت آناءَ الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه متسائلاً عن مدىٰ استواء الذين يعلمون والذين لا يعلمون، بل نافياً أن يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، فمن علم أهوال القيامة، وزلزلة الساعة، وطول القيام، والزحام، واللجام بالعرق وغيره، فأشفق منها، وكان ممن يُؤْتُونَ ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلىٰ ربهم راجعون، فسارعوا في الخيرات، وهم لها سابقون، هل يستوي هؤلاء مع من يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون؟!!.

إن ذلك يشدنا إلىٰ سورة الإنسان التي تقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ

لَيْلًا طَوِيلًا. إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ الآيتان (٢٦، ٢٧)

وهو لا شك ثقيل، ليس بطوله فقط، فهو بالنسبة لنا يكاد يوازي ألف ضعف لحياتنا الدنيا، بل أيضـًا بما فيه من الكرب العظيم، فإنه يوم عسير علىٰ الكافرين غير يسير، وهو يوم يجعل الوِلْدانَ شيبـًا، وهو يوم الآزفة إِذِ القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين، لا يرتد إليهم طَرْفُهم، وأفئدتهم هواء، فمن أراد أن يأتي آمنـًا يوم القيامة فعليه بقيام الليل؛ حتىٰ يستريح من طول القيام، ويكون في ظل عرش الرحمن يأكلون ويشربون بما أسلفوا في الأيام الخالية.

وقد أخبرت سورة الإسراء أن المقام المحمود والشفاعة الكبرىٰ إنما نالها نبينا عليه الصلاة والسلام بالتهجد بالليل من بعد إقام الصلاة لدلوك الشمس، إلىٰ غسق الليل، وقرآن الفجر؛ إن قرآن الفجر، كما في الآيتين (٧٨، ٧٩)، ومن المرجو لمن اتخذه عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة أن ينال شفاعته؛ بل أن يكون من الشافعين الذين يكونون عند ربهم من المقربين، فيشفع مع الشافعين.

يبقىٰ أن أشير إلىٰ أن الذين يقومون الليل هم أشبه البشر بالملائكة، فالملائكة يُسَبِّحون الليل والنهار لا يَفْتُرُون؛ بل يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، وحالئذٍ يكون القائمون ملائكة تمشي علىٰ الأرض، ويكونون خير البرية.

لعل إدراك بعض هذه الأسرار، وربما لا تكون معشار ما في القيام من الأسرار، لعل إدراكها يعيننا علىٰ قيام رمضان إيمانـًا واحتسابـًا، وقيام العشر الأواخر وليلة القدر إيمانـًا واحتسابـًا، ليكون ذلك دورة تدريبية سنوية علىٰ القيام في سائر العام.

ويسرني أن أُذَكِّرَ بأنه مدرسة صناعة الرجال أولي القوة وأولي البأس الشديد الذين لا قِبَلَ لعدوهم بهم؛ فإنهم صبغة الله، وصنعته علىٰ عينه؛ ليغيظ بهم الكفار، ويُعْجِبَ بهم الأبرار.

العبرة بالخواتيم، والصوم عاصم من السقوط في دَرْكِ البهيم

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]

أثناء انعقاد المؤتمر السادس لحركة فتح كان أبرز ما يَتَغَنَّوْنَ به؛ لإعادة تسويق أنفسهم لدىٰ الجيل الجديد من الشعب الفلسطيني، هو التاريخ النضالي، والرصاصة الأولىٰ في مستهل عام ٦٥م، وكأن تاريخ المقاومة علىٰ أرض فلسطين قد بدأ مع تبلور حركة فتح في شكل تنظيم مسلح؛ لتحريرها من النهر إلىٰ البحر، مع أن الثلاثينات شهدت جهاد الشيخ عز الدين القسام وإخوانه، كما أن المقاومة التي الْتهبت في عام ٤٨م قد شارك فيها المتطوعون من الإخوان المسلمين، وأَبْلَوْا بلاءً حسنـًا، بالإضافة إلىٰ الانتفاضة الشعبية التي كانت تقاوم الاحتلال البريطاني، والاحتلال الاستيطاني، في مرات عديدة منذ العشرينات، وإلىٰ يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن العبرة بالخواتيم، فقد يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، ولن يشفع له أنه امتلك نفسـًا عاملة ناصبة في ماضي الأيام، والعكس بالعكس، فأحبُّ الأعمال إلىٰ الله ما داوم عليه صاحبه، وقد وصَّاكم أنْ لا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون.

أما هذه الآية فتجعل بني إسرائيل في عدم انتفاعهم بالهدىٰ والنور، وقد كُلِّفوا أن يقوموا بالتوراة علمـًا وعملاً، وأُخِذَ عليهم الميثاق لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنـًا قليلاً، فبئس ما يشترون، إنها تجعل مثلهم

في ذلك كالحمار يحمل الكتب الثقال، ولا يناله منها إلا التعب والنَّصَب، فقد كذبوا بآيات الله، ومنها ما يوصي باتباع خاتم المرسلين؛ فإنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم، وأن الذين آمنوا به، وعَزَّروه ونصروه، واتَّبعوا النور الذي أُنزل معه، أولئك هم المفلحون، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنه الله علىٰ الكافرين، وقد ختم الآية بأنه لا يهدي القوم الظالمين، وقد ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا رسول الله بجحود نبوته، وظلموا ربهم الذي هو أعلم حيث يجعل رسالته.

إن بعض علماء بني إسرائيل كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله؛ ليشتروا به ثمناً قليلاً، لذلك فقد ضرب الله جل جلاله المثل لهم بالكلب؛ إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، وأنه ليس خاصاً بهم، بل هو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله جميعا.

ولم تقتصر عقوبات بني إسرائيل علىٰ ضرب الأمثال لهم بالبهائم البليدة أو الدنيئة، بل إنهم لما اعتدوا في السبت، ولم تنفعهم موعظة الواعظين، قيل لهم: كونوا قردة خاسئين، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت، وكانوا شراً مكاناً، وأضلَّ عن سواء السبيل.

وهنا يطرح سؤال عن هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون حديثاً: ما الذي دهاهم وقد آتاهم ربهم الكتاب والحكم والنبوة، ورزقهم من الطيبات، وفَضَّلهم علىٰ العالمين، وآتاهم بيناتٍ من الأمر، وقد اختارهم علىٰ علمٍ علىٰ العالمين، ثم رَدَّهم أسفل سافلين، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وتَأَذَّنَ ليبعثنَّ عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب؟

والجواب أن التفضيل كان بسبب أنهم استُحْفِظوا كتاب الله، وكانوا عليه شهداء، فقد جعل منهم أئمة يهدون بأمره لمَّا صبروا، وكانوا بآياته يوقنون، وقد

كان منهم أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون.

ثم إنهم الذين طهَّروا بيت المقدس من دنس القوم الجبارين بقيادة يوشع بن نون بعد انسلاخ فترة التيه، وكان منهم الفئة المؤمنة التي ثبتت مع طالوت من بعد ما زاغ قلوب كثير منهم، عندما شربوا من نهر الأردن إلا قليلاً منهم، لكنهم وهم بضع مئات قد هزموا مائة ألف أو يزيدون بإذن الله، والله مع الصابرين.

أما السرُّ الذي أودىٰ ببني إسرائيل دون دركة الأنعام فهو انهزامهم أمام الشهوات، وبالأخص المال والجمال، فقد قالوا لسيدنا موسىٰ لن نصبر علىٰ طعامٍ واحدٍ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقِثَّائها وفُومها وعدسها وبصلها، وكانوا بذلك يستبدلون الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وهو المنُّ والسلوىٰ، ثم قالوا لسيدنا عيسىٰ: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، فلما طلب إليهم أن يتقوا الله إن كانوا مؤمنين أجابوه: نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا في ادِّعاء النبوة، ونكون عليها من الشاهدين، وقد كانوا ولا يزالون آخذين للربا وقد نُهُوا عنه، أكَّالين للسحت، ولأموال الناس بالباطل، حتىٰ إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله.

وأما الجمال فيكفي أن نعلم أن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وقد ألصقوا بكثير من الأنبياء تهمة ارتكاب الفواحش؛ ليقولوا: إن تدنسهم بالفواحش ليس بدعـًا من العادات، فإن بعضـًا من الأنبياء قد حركتهم شهواتهم، وهم علىٰ آثارهم يهرعون، والعياذ بالله تعالىٰ من كذب اليهود، وجرأتهم علىٰ الله تعالىٰ، وعلىٰ المُصْطَفَيْنَ الأخيار.

هذا وقد جاء علينا حينٌ من الدهر امتدَّ قريبـًا من أربعة عشر قرنـًا كنا فيها خير أمة أخرجت للناس، نؤدي فيها الأمانات إلىٰ أهلها، ونحكم بين الناس بالعدل، ولم يكن يَجْرِمُكم شنئان قوم علىٰ ألَّا تعدلوا، فقد كنتم أمةً وسطـًا شهداء علىٰ

الناس، إلا من فترات قصيرة تمكن فيها الصليبيون من الهيمنة علىٰ كثير من بلادنا الإسلامية، كما شهد القرن السابع هجماتٍ مغوليةً ذبحت الملايين، ثم اندحرت في عين جالوت وما وراءها.

فما الذي دهانا حتىٰ بتنا نُعْرَفُ بدول العالم الثالث، وحتىٰ صار الحكام فينا خَدَمًا لليهود والنصارىٰ، بل أمسىٰ بعض الكُتَّاب والمفكرين أبواقًا لكل ما يَفِدُ من الغرب غَثِّه وسمينه؟!.

إن الجواب هو الجواب عينه، إنهما الشهوتان؛ فإن أبرز مظاهر الفساد اليوم هو الاختلاسات المالية، وتصرف الحكام في المال العام، كأنه تركة الآباء والأعمام، ثم التلطخ بالفواحش؛ ذلك أن النساء من حولهم وفي قصورهم قد اتبعن سَنَنَ اليهود والنصارىٰ، فلا تبرز إلا في أبهىٰ زينتها، ويغريها بذلك أن الإعلام والثقافة قد صَوَّرَ الحشمة تخلفًا ورجعية، وجعل العري والعهر تطوراً وتقدمية.

إن حركة فتح، وما يسمىٰ باليسار الفلسطيني، قد هَرِموا، وَوَهَنَ العظم منهم للأسباب نفسها، فقد تحولت الثورة إلىٰ مشروع ثروة، وبات القادة يُشْتَرَوْنَ بثمن بَخْسٍ دراهم معدودة، أو بالبغايا والراقصات، وآل الأمر إلىٰ القبول بدور الخادم في بلاط الأمريكان والصهاينة، والشراكة معهم، أو النيابة عنهم في مطاردة الإسلام والمقاومة، حتىٰ إن أكثر المعتقلين علىٰ أيديهم يلتحقون بجيوش المعاقين، أو يلحقون بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ورحم الله تبارك وتعالىٰ الشهيدين كمال أبو طعيمة وفادي حمادنة.

إن الصوم يعلمنا كيف ننتصر علىٰ هاتين الشهوتين، فنعود سيرتنا الأولىٰ خَيرَ أمة أُخرجت للناس، ونتحصن أمام الاحتلال الذي يَوَدُّ لو نتخلىٰ عن المقاومة، ونُقِرُّ بشرعيته، ودون ذلك أرواحنا حتىٰ لو نُشرنا بالمناشير، أو مُشِط ما بين لحمنا وعظمنا بأمشاط الحديد. والله وليُّ المؤمنين.

اليهود هُمْ أرذَلُ قومٍ في انتهَاك مقاصِدِ الصَّوم

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقرة: ١٨٨] .

يشدُّ الانتباه مجيءُ هذه الآية بعد تفصيل أحكام الصيام، وقد رأىٰ المفسرون أنه انتقال من الأكل المحرَّم مؤقتـًا في رمضان إلىٰ الطعام المحرم مؤبداً، وهذا يعني أن الصوم جاء تدريبـًا للعباد علىٰ معانٍ كثيرة، منها الصوم عن محارم الله كلِّها، لا سيما ما تعلق من الشهوات بالبطون والفروج؛ فإن من لم يَدَعْ قول الزور، والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه، كما جاء في الحديث.

إن النهي عن تناول أموال الناس بالباطل قائم، حتىٰ لو استطاع بعض الناس أن يدلي بها إلىٰ الحكام؛ إما رشوة، وإما عن طريق تزوير البينات، وتحصيلها بواسطة الحكام؛ لتأكلوا نصيبـًا من أموال الناس بغير حَقٍّ وأنتم تعلمون أنه سُحْتٌ؛ فإن قرار القضاة لا يُحِلُّ حرامـًا، ولئن أخذها الأَلْحَنُ بحجته من أخيه، فإنما أخذ قطعة من النار، والعياذ بالله تعالىٰ.

إن صور أكل أموال الناس بالباطل كثيرة، غير أني مقتصر في هذا المقال علىٰ طائفة مما نصَّ القرآن علىٰ حرمته:

١ - أكل الربا: فقد نهاكم ربكم أن تأكلوا الربا أضعافـًا مضاعفة، ثم أمركم أن تتقوا الله، وتذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين؛ فإنه من السبع الموبقات، وهو الذنب الوحيد الذي أعلن الله جل جلاله الحرب علىٰ أهله، ما لم تكتفوا برؤوس أموالهم، لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون؛ فإنكم ما آتيتم من ربـًا ليربو في أموال الناس،

فلا يربو عند الله، وإن الذين يأكلون الربا لا يقومون من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ، فقد صارت بطونهم كالبيوت، كلما هَمُّوا أن ينهضوا بهـا وقعوا مُكِبِّين علىٰ وجوههم، وإن درهم ربا أشد من ست وثلاثين زنية، كما في السُّنة.

٢- أكل مال اليتيم: فقد أمر المولىٰ سبحانه إذا بلغ الأيتام الحُلُم، وآنستم منهم رشداً بالاختبار، أن تدفعوا إليهم أموالهم، وكان قد نهاكم أن تأكلوا أموالهم إلىٰ أموالكم، أو أن تأكلوها إسرافـًا وبداراً أن يكبروا، كما في صدر سورة النساء وقد توعد الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلمـًا بأنهم إنما يأكلون في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً؛ فإن الذين يفعلون ذلك هم الذين يكذبون بالدين، فلا يكرمون اليتيم، بل يَدُعُّونه عنهم دَعًّـا.

٣- أكل الميراث: كان من عادة العرب في الجاهلية أن يأكل القوي الضعيف، خاصة في الميراث، لذلك فإنهم لم يكونوا يُوَرِّثوا الصبيان ولا النساء؛ بدعوىٰ أن الأحق به هم الذين يحملون السلاح، ويدافعون عن القبيلة، لذلك فقد نَعَىٰ عليهم أنهم يأكلون التراث أكلاً لَمًّـا، ويحبون المال حبـًا جمـًا، وقد جعل فيه للذكر مثل حَظِّ الأنثيين، مما قَلَّ منه أو كثر نصيبـًا مفروضـًا، إلا في حالات معدودة جعل فيها النساء شركاء مع الرجال، تأخذ مثل نصيبهم، كما في إعطاء الأبوين لكل واحدٍ منهما السدس؛ إن كان للابن المتوفىٰ ولد، أو في إعطاء الإخوة من الأم الثلث بالشراكة ذكرانـًا وإناثـًا، حين يورث الميت كَلَالَةً.

٤- أكل المحرمات الأربعة: من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغير الله، وقد جاء ذلك في القرآن المكي مَرَّتَيْنِ، وفي المدني مرتين أخريين، كما في الأنعام [١٤٥]، والنحل [١١٥]، ثم في البقرة [١٧٣]، والمائدة [٣]، وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ... ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فكيف لو أُهِلَّ به لغير الله؛ كأن يذبح علىٰ اسم المسيح، أو عند اللاتِ

والعُزَّىٰ، ومناة الثالثة الأخرىٰ، حين يَدْعُونَ بَعْلاً، ويذرون أحسن الخالقين اللهَ ربَّهم وربَّ آبائهم الأولين.

٥- وهناك كبيرة قد تحسبون الحديث بها هَيِّنًا، وهو عند الله عظيم؛ إنها الغِيبة، وذكرُك أخاك بما يكره، حتىٰ لو كان فيه ما تقول، فإنه بمنزلة أن يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا، فكرهتموه، كما في الحجرات[١٢].

إن أكثر أمة نعىٰ عليها القرآن انتهاك حرمة الأموال والمطعومات هم اليهود، أولئك الذين أخذوا الربا وقد نُهُوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، ولم يكن هذا من صنيع سفلتهم وحدهم، بل إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، وكان فيهم مَنْ إن تأمنه بدينارٍ لا يؤدِهِ إليك إلا ما دُمْتَ عليه قائمًا، بل إن القرآن قد وصفهم بالمبالغة في أكل السُّحْت حين قال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ.. ﴾ [المائدة: ٤٢] وقال فيها كذلك: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ الآيتان: [٦٢-٦٣].

ولعل أسوأ ما صدر عن اليهود أن يكتموا ما أنزل الله من الكتاب، خاصة تلك النصوص الشاهدة لخاتم النبيين بالرسالة، أو التي تتعلق بالحدود والعقوبات، سواء كتبوا غيرها، أو كتموا ما فيها؛ ليشتروا بذلك ثمنًا قليلاً من الحكام، أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ فقد اشتروا الضلالة بالهدىٰ، والعذاب بالمغفرة، فما أصبرهم علىٰ النار، كما في البقرة [١٧٤-١٧٥].

لذلك فقد جَرَّت عليهم شهوة الأكل لَعْنَتَيْنِ، فقد لعنوا علىٰ لسان داوود وعيسىٰ بن مريم عليهم السلام، أما الأولون فقد قيل لهم كونوا قردة خاسئين عندما اعتدوا في السبت، فاحتالوا لاصطياد السمك، وأما الآخرون فقد مسخوا

خنازير لمَّا أصروا علىٰ طلب مائدة من السماء معجزة لسيدنا عيسىٰ، وهو الذي كان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، فضلاً عن المعجزات الأخرىٰ، فما استجاب الله عز وجل لهم إلا بعد أن شرط عليهم أنه من يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، كما في المائدة [١١٥].

ولا زال اليهود في انتظارهم أن يأكلوا من شجر من زقوم، فيملأوا منها البطون، ويشربوا عليها من الحميم شُرْبَ الجِمال الهِيم، أو أن يكونوا ممن ليس لهم طعام إلا من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع، أو طعام من غِسلين، لا يأكله إلا الخاطئون،؛ فإن لدىٰ ربنا أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غُصَّةٍ وعذاباً أليماً.

أما أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقد ابْتُلُوا يوم الحديبية بشيءٍ من الصيد تناله أيديهم ورماحهم، وكانوا في مخمصة، فلم تهزم أحداً منهم نفسُه، ولم يَصْطَدْ شيئاً؛ مخافة من الله بالغيب، كما لم يستسلموا؛ بل بايعوا علىٰ الموت تحت الشجرة، فكانوا خيرة أهل الأرض، كما في المائدة [٩٤]، والفتح [١٨].

ثم إنهم يوم خيبر قد عَضَّهم الجوع، فذبحوا حُمُراً أهلية، حتىٰ إذا غلت بها القدور، وأوشك اللحم أن ينضج؛ إذا برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يأمرهم بإكفائها، وأن يظلوا في جوعهم، فقد حَرَّمها علينا إلىٰ يوم القيامة.

وقد انضاف إلىٰ ذلك تحريم نكاح المتعة في غزوة خيبر نفسها، فما انتهكه أحد رغم شدة حاجتهم إليه، وظهر بذلك الفرق بين الصحابة الكرام وبني إسرائيل اللئام الذين كانت فتنتهم في النساء.

ومن هنا قيل للصحابة يوم القيامة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كنتم تعملون﴾ [المرسلات: ٤٣]، في جنة أُكُلها دائم وظِلُّها، تلك عقبىٰ الذين اتقوا، وعقبىٰ الكافرين النار، كما في الرعد [٣٥]

لذلك فإن الذي يأكل الربا، أو يَقْرَبُ مال اليتيم بغير التي هي أحسن، أو يأكل التراث، أو غيرها من المحرمات، يكون قد صام عما أحل الله، وأفطر علىٰ ما حرم الله، فلم يَنلْه من صيامه إلا الجوع والعطش، ويذهب صومه هباءً منثوراً.

واعلموا أن الصوم تدريب جهادي، حتىٰ لا ترفعوا الراية البيضاء إذا أصابكم الظمأ والنصب والمخمصة، وإن الانتصار علىٰ النفس، وفطامها عن شهواتها المحرمة، أو عن الإسراف في المباحات، هو أمارة النصر المبين علىٰ المعتدين والمجرمين؛ فإن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

وتقبَّل الله منا ومنكم صالح الأعمال والطاعات.

بالصوم في الصيف، والضرب بالسيف تأمنون من حَرِّ الحشر، ومن لظى سَقَر

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

أشفق كثير من الناس من تزامن شهر رمضان مع موجة حَرٍّ غير مسبوقة، تجتاح الأرض المباركة هذه الأيام، فإلىٰ جانب طول النهار هناك فارق عشر درجات تقريبًا في مستوىٰ الحر بالقياس إلىٰ سنواتٍ خلتْ، لم تكن درجة الحرارة فيها تفوق الثلاثين، بينما هي في هذا الموسم تزاحم الأربعين، غير أنها تُعَدُّ ربيعًا بإزاء ديار نَجْدٍ والخليج، وبعض الدول الأفريقية، ومع ذلك فلم يفلح الفرار إلىٰ الشُّرفات، أو الشوارع، أو الشواطئ في التهوين من التبرم من الأجواء المشبعة بالرطوبة الناتجة عن تبخر المزيد من مياه البحر؛ فإن غزة قرية حاضرة البحر.

وقد تساءلتُ في موعظةٍ ألقيتُها عن حالنا لو كان معظم العام علىٰ هذه الشاكلة؟؛ حيث لا تكاد تنفع المراوح الهوائية إلا في تحريك الهواء الساخن الذي لا يُبْرِدُ ولا يُغني من حَرٍّ، وليس في أيدي الناس ما يقتنون به أجهزة التبريد، ولئن وُجِدَتْ فلا تتيسَّرُ الكهرباء ذات الضغط المرتفع الضروري لتشغيلها؛ فإن أذناب الحصار قد أوضعوا خِلالنا يبغوننا الفتنة؛ لعل الناس حين تضيق ذرعًا بالحرِّ والفقر أن تثور في وجه الحكومة، وتطلب منها الرحيل، وإفساح الساح للدخيل والذليل الذين يُوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غُروراً، وكأنَّ الحال في رام

الله، وتحت الاحتلال، أفضل منه في غزة التي ترتع في الأمن وصلاح البال، إلا من شرذمةٍ تتغنىٰ بالنضال، وهي أقرب إلىٰ الاحتيال!!.

هذا إذا قِسْنا أنفسنا ببعض البلاد في حياتنا الدنيا، فكيف لو كان القياس بقيام الساعة، يوم ينفخ في الصور، ويبعث مَنْ في القبور، فتدنو الشمس من رؤوس العباد، حتىٰ تكون بمقدار ميل، فيغرق الناس في العرق، فمنهم من يبلغ كَعْبَيْه، ومنهم من يغطي ركبتيه، ومنهم من يصعد إلىٰ حِقْوَيْهِ، أو يرتفع إلىٰ كتفيه، فكيف بمن يُلْجِمُه إلجامًا، ويذهب في الأرض سبعين ذراعًا؛ فإنه يأتيه الموت من كل مكان في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وما هو بميت، ومن ورائه عذاب غليظ؟!!.

حقًا؛ إنه يوم عسير، علىٰ الكافرين غير يسير، بل هو عَبُوسٌ قمطرير، تتقلب فيه القلوب والأبصار، ويجعل الوِلْدانَ شيبًا كالشيوخ الكبار، والعياذ بالله الرؤوف الغَفَّار.

وهنا نتساءل: كيف يمكن لأيٍّ منا أن يأتي آمنًا يوم القيامة، فلا يسمعوا حسيسها، فضلاً عن أن يَرَوْها أو أن يَصْلَوْها، ولا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا الحرُّ الأكثر؛ فإننا لو سلمنا أن حَرَّ الآخرة عشرة أضعافه في الدنيا، وكان متوسط القيظ في الدنيا خمسين درجة؛ فإن حَرَّ القيامة يجاوز الخمسمائة، ولو عُمِّر أحدنا مائة عام فإن طول مقامه في الحشر قبل الظَّفر بالجنة أو التردي في سَقَر، يبلغ خمسمائة ضعفٍ لهذه الحياة الدنيا، فكيف بمن توفي دون الخمسين، والأكثرون يموتون دون السبعين؟!!.

إن الجواب يكمن في الخِيَرَةِ بين حَرَّيْن، وبين حياتين؛ فإما أن يختار الإنسان الحياة الدنيا وزينتها، فيركن إلىٰ الراحة، وينضم إلىٰ الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وهي لا تعرف الصيام، ولا تفرق في الطعام بين الحلال والحرام، ثم تكون النار مثوىً لهم، لا يُقْضىٰ عليهم فيموتوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها،

بل يصطرخون فيها: ربَّنا أخرجْنا نعملْ صالحاً غير الذي كنا نعمل، فقد غَلَبَتْ علينا شِقْوتُنا، وكنا قوماً ضالِّين، فإن عدنا فإنا ظالمون، ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، وإنهم لكاذبون، لذلك سيكون جواب ربهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، فإذا دَعَوا هنالك ثُبُوراً قيل لهم: لا تَدْعُوا اليوم ثبوراً واحداً، وادعوا ثبوراً كثيراً، لكن الذي يَصْلَىٰ النار الكبرىٰ لا يموت فيها ولا يحيىٰ، وما هم بخارجين من النار.

وقد نعجب من هؤلاء حين يضيقون ذرعاً بالحشر وطوله وأهواله، فيتمنون أن يستريحوا منه ولو إلىٰ جهنم، ولكنهم كمن يستجير من الرمضاء بالنار، فقد فزعوا إلىٰ آدم وجميع المرسلين يسألونهم الشفاعة عند ربهم؛ ليريحهم من عقاب الحشر إلىٰ الحساب، وما الحساب منه بأمثلٍ؛ فإن الحساب العسير ترتعد منه الفرائض، وتبلغ القلوب الحناجر، وينتهي بقول الله عز وجل للزبانية الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢].

فإذا كان من العتاة العصاة كان الأمر للتسعة عشر: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ – ٤٩]

فإما أن يختار هذا المصير، وإما أن يختار احتمال الحرّ في الدنيا وهو يصوم في الصيف، ويضرب بالسيف، بل ويضربون في الأرض يقاتلون في سبيل الله، لا يحول دون ذلك بَرْدُ شتاءٍ؛ كما في غزوة الخندق، ودفع الأحزاب، ولا حَرُّ صيفٍ؛ كما في غزوة تبوك، والزحف تلقاء الروم بني الأصفر، وتكون العاقبة جنةً عرضها السموات والأرض، أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها، فهم في سدْرٍ مَخْضود، وطَلْحٍ منضود، وظِلٍّ ممدود، وماءٍ مسكوب، وفاكهةٍ كثيرةٍ، لا مقطوعةٍ ولا منوعة، قد وَقَاهم الله شَرَّ ذلك اليوم، ولقَّاهم نَضْرةً وسُروراً، وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرا، متكئين

فيها علىٰ الأرائك لا يَرَوْنَ فيها شمسـًا ولا زمهريراً، ولا تعلم نفس ما أخفىٰ لهم من قرة أعينٍ جزاء بما كانوا يعملون، وأنتم فيها خالدون.

وبالعودة إلىٰ آية المقال نجدها تخبر عن المنافقين الذين فرحوا بالإذن لهم بالقعود، والترخيص لهم في التخلف عن غزوة تبوك، بالمعاذير الكاذبة، حتىٰ عُوتب فيهم عليه الصلاة والسلام، فلو لم يأذنْ لهم لامتاز أمامه الذين صدقوا، وعَلِمَ الكاذبين، فإنهم سيقعدون ولو لم يُؤْذَنْ لهم، ولكنَّ نبينا عليه الصلاة والسلام أيقن أنهم لو خرجوا فينا ما زادونا إلَّا خبالاً، فثَبَّطهم؛ ليستريح من فسادهم وفتنتهم.

وقد جمع أولئك الأوغاد بين الفرح بالقعود مع الخوالف والقواعد من النساء، وبين كراهة الجهاد بأموالهم وأنفسهم؛ لأنهم يتخذون ما ينفقون مغرمـًا، ويرغبون بأنفسهم عن الشهادة، وعسىٰ أن يكرهوا شيئـًا وهو خيرٌ لهم، وعسىٰ أن يكرهوا شيئـًا، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

ثم إنهم قد تواصوا بعدم النفير في الحرِّ، والمنافقون يقعدون ويأمرون الناس بالقعود؛ فإن الله جل جلاله يعلم المعوقين منكم، والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلاً، وإنَّ منكم لمن ليبطئن؛ فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً، وقد نهاكم ربكم أن تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض، أو كانوا غُزَّىً، لو كانوا عندنا ما ماتوا، وما قُتِلوا؛ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم.

إن الله عز وجل يعلمنا أن نقول لأولئك المُخَوِّفين من الحرِّ، الناهين عن الخروج للجهاد فيه: إن نار جهنم أشدُّ حراً، ولو كنتم تفقهون ذلك لما تَخَلَّفْتم، ولما أمرتم غيركم بالتثاقل إلىٰ الأرض مثلكم.

إن نارنا هنا في الدنيا التي جعلها الله تذكرةً ومتاعـًا لِلْمُقْوينَ المسافرين،

وللمقيمين القاطنين من بابٍ أَوْلىٰ، لا تزيد عن كونها جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد فُضِّلتْ عليها بتسعة وستين ضِعْفـًا، وإن أدنىٰ أهلها عذابـًا من يكون له نَعْلانِ من نار، أو توضع جمرتان في إخمص قدميه، يغلي منهما دماغه، ولا يرىٰ أن أَحَداً قد فُضِّلَ عليه بعذاب، وإنه لأهونهم عذابـًا، وقد أوقد الله جل جلاله علىٰ النار ألف عام حتىٰ احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتىٰ ابيضت، ثم أوقد عليها ألف عام حتىٰ اسودت، فهي سوداء كالليل البهيم؛ فضلاً عن سواد وجوههم، كأنما أُغْشِيت قطعـًا من الليل مظلمـًا، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدْ يراها؛ فَلْيضحكوا في الدنيا قليلاً، ولْيبكوا في الآخرة كثيراً؛ جزاءً بما كانوا يكسبون.

وما ربك بظلامٍ للعبيد.

البشارة بالفرح بالنصر قبل سبع سنين من ميقات معركة بدر

﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَىٰ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥].

تمر بنا هذه الأيام ذكرىٰ فرحتنا الكبرىٰ بالانتصار في بدرٍ الكبرىٰ، فقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة، وقد كنتم قليلاً مستضعفين في الأرض، تخافون أن يتخطفكم الناس، فآواكم، وأيدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون.

وقد كانت إرهاصات ذلك النصر العزيز قد تَنَزَّلَتْ في القرآن المكي قبل أن نهاجر إلىٰ المدينة، ويجعل الله لنا من لدنه سلطانًا نصيراً، فقد أخبر سبحانه أن صناديد قريش قد بَدَّلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار، كما في سورة إبراهيم (٢٨)، وأنهم لما حاصروا المؤمنين في شِعَبِ أبي طالب، واضطروهم من شدة إحكام الحصار أن يأكلوا أوراق الشجر، دعا عليهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أن يعينه الله عليهم بسبعٍ كَسِنِيِّ يوسف، فأخذهم بالسنين التي أخذ بها آل فرعون، حتىٰ إنهم لَيُخَيَّلُ إليهم - من الجوع وضعف البصر - أن السماء تأتي بدخانٍ مبين، يغشىٰ الناس، هذا عذاب أليم، ثم أخبر سبحانه بعد توسلهم إلىٰ سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم أن يدعو الله، فيكشف عنهم لباس الجوع.. أخبر أنه سيكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً، لكنهم عائدون إلىٰ ما نُهُوا عنه، وإنهم لكاذبون، وقد عادوا، فمكروا به ليثبتوه، أو يقتلوه، أو يخرجوه، ولكن العاقبة أن ينتقم الله منهم بالبطشة الكبرىٰ، وهي صاعقة بدر العظمىٰ، وذلك في سورة الدخان ١٥[-١٦].

وكان من إرهاصاته كذلك ما ورد في صدر سورة الروم هذه، حيث هَلَّلتْ قريش كثيراً لانتصار فارس الوثنية علىٰ الروم أهل الكتاب، فقد تنصَّروا، فصاروا أهل دين سماوي، فأراد الله عز وجل أن يقمع سرور عبدة الأصنام، وأن يرفع روحنا المعنوية، فأخبر أن الروم ستنتزع غلبتها علىٰ فارس في بضع سنين؛ أيْ دون عشر سنين، ولا يُعَدُّ الانتصار المرشح للضياع في هذه المدة القصيرة فوزاً أو غلبة، فلا داعي لابتهاج قريش ما دام علىٰ وشك الزوال.

وأما قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فهو ردٌّ علىٰ المشركين الذين يظنون أن آلهتهم هي التي نصرتهم من دون الرحمن، فهو صاحب المشيئة المطلقة قبل وقوع الغلبة ومن بعدها، ولعل هذه الجملة قد جاءت في معرض البشارة بأن الله تبارك وتعالىٰ سيمكن لنا من رقاب الفريقين، ما دام الأمر كله لله.

وأما التعقيب بـ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الذي يراك حين تقوم، وتقلبك في الساجدين، فهو إشارة إلىٰ أن غلبة فارس أولاً وقع بعزة الله وقدرته، وأن انهزامهم أمام الرومان كان برحمته للمغلوب.

وينبغي التوقف عند قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ﴾ [الروم: ٤، ٥] فقد كان الصحابة يُؤَمِّلون أن يكون انتصار الروم علىٰ فارس سبباً في استبشارهم بغلبة دينهم علىٰ دين قريش، ولكنه سبحانه أراد لتلك الفرحة أن تكون بانتصارنا نحن علىٰ عدوِّ الله وعدونا أهل مكة، فقد تزامن يوم الفرقان يوم الْتقىٰ الجمعان مع العام الذي استردت فيه الروم غلبتها، وأذلَّ الله بهم المجوس الفُرْس، فكانت البهجة أكبر مما نؤمِّل، فقد أراد الله أن يحق الحق بكلماته، ويقطع دابر الكافرين، لِيُحِقَّ الحقَّ، ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون، فيهلك من هلك عن بينةٍ بالإعراض عن الدين المنتصر، ويحيىٰ من حيَّ عن بينة بالدخول فيه.

وأما قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فالمراد به أن أكثرهم كانوا يرونه

مستحيلاً أن تنتصر الروم المندحرة في بضع سنين، ولكن السرَّ في هذا هو أن العقيدة والدين، وما فيه من تعبئة وتحريض، قادر علىٰ أن يجعل الروم يلملمون شتاتهم، ويرممون قوتهم، ويستأنفون الاشتباك مع عدوهم في حرب استنزاف، لا قِبَل للجيوش النظامية بها، تجعل العدو يستسلم للمقاومة، ويضطر للقبول بالهزيمة.

إن انتصار الروم هذا قد وقع في سبع سنين، وكان مُصَدِّقاً لمعجزة الإخبار بالغيب الذي انطوت عليه تلك البشارة، ولا عجب في ذلك؛ فإن الفترة من الهجرة إلىٰ فتح مكة، وتحقيق حلم العودة إلىٰ الديار التي أخرج منها المهاجرون، لا تكاد تزيد عن هذه المدة إلا بشيءٍ يسير، فقد هاجر نبيُّنا عليه الصلاة والسلام في ربيع الأول من العام الأول، ثم استسلمت مكة في العشرين من رمضان من العام الثامن.

ولعلٍ من جميل علم الله أن تكون البقرات السمان اللاتي يأكلهن العجاف سبعاً لكلٍّ منهما، وكذلك السنبلات الخضر واليابسات الأُخَر، كما في رؤيا الملك، وتأويل سيدنا يوسف عليه السلام ذلك بالسنوات السبع القحط التي تجيء من بعد سبعٍ خصاب.

وقد رأينا مصداق ذلك في واقعنا؛ فإن الانتفاضة الأولىٰ - التي عرفت بمقاومة أشبال المساجد - ما كادت تناهز سبع سنين حتىٰ استجار الصهاينة منها بأزلام أوسلو، ولم تمضِ سبع أخرىٰ حتىٰ انفجرت الانتفاضة الثانية انتفاضة الأقصىٰ، ومع انسلاخ سبع سنين كانت المقاومة قد كنست الاحتلال، ثم قَمَّتْ ذيول الاحتلال في القطاع، والترتيب اليوم علىٰ الضفة الغربية، وأكاد أجزم أن تطهيرها من الفريقين سيكون دون هذه المدة، أو حتىٰ دون شطرها.

فإذا الْتفتنا إلىٰ أسياد هؤلاء الأقزام نجدهم منذ سبع سنين وهم متورطون فيما ينعتونه الحرب علىٰ الإرهاب، يعنون بذلك المقاومة الإسلامية، وقد أفسدوا

فيها، وسفكوا الدماء في مناطق شتىٰ، وخاصة في العراق وأفغانستان، وهم علىٰ موعد مع سبع أخرىٰ تحيل أمريكا إلىٰ قزمٍ مترنحٍ أمام تصاعد المقاومة.

إن المتوقع خلال هذه المدة أن تقوم أكثر الدول التي سارت في ذيلها بالتكفير عن جرائمها، وإفساح المسرح السياسي للشعوب، فتكون شريكة في صناعة القرار، ويومها ستكون كثير من حكومات الرويبضات قد تزحلقت إلىٰ غير رجعة، وما بكت عليهم السماء والأرض، وستكون دولة الاحتلال تخطب وُدَّ المقاومة، وتتمنىٰ هدنةً ستكون باهظة الثمن، وما أظنها تنالها، ولئن نالتها فلن تُعَمِّرَ طويلاً؛ فإنهم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون؛ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ولا يعقلون.

فإذا عدنا إلىٰ معركة بدر كان الواجب أن أؤكد أنها ليست يتيمةً في تاريخنا، فقد وعدكم ربكم إِنِ اتقيتم أن يجعل لكم فرقانًا، كما جعل للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وقد أخبر أن نزول ألفٍ من الملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين بشرىٰ مطلقة، وليست خاصة بالمستغيثين ربهم ليلة بدرٍ، بل إنهم مرشحون للزيادة إلىٰ ثلاثة آلاف، أو خمسة آلاف من الملائكة مسومين بحسب الصبر والتقوىٰ والحاجة، هذا فضلاً عما شاء ربنا تبارك وتعالىٰ أن يُمِدَّنا به من جنود السماوات والأرض فقد أمدَّ البدريين بالأَمَنة من خلال النعاس، بالمطر الذي شدّ الأرض تحت أقدامهم، وأساخها بالعدوة القصوىٰ، فقد أصبحت تحت أقدام قريش صعيداً زلقًا، ولا يفوتنا أن نشير إلىٰ الرعب الذي ألقاه في قلوب المشركين حين رأونا أقلة قبل الالتحام، ثم صاروا يروننا مثليهم رأي العين، في حين رأيناهم أقلة، وظللنا نراهم كذلك؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولا، وإلىٰ الله ترجع الأمور. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

الصوم والنصر توأمان
من بدرٍ إلى عين جالوت

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر ١-٣]

لا نكاد نبرح ذكرىٰ بدر الكبرىٰ حتىٰ تَحُلَّ علينا ذكرىٰ فتح البلد الأمين، والحَرَم الآمن الذي يُجْبَىٰ إليه ثمرات كلِّ شيءٍ رزقًا من الله، وكلتاهما كانت نصرًا عزيزًا؛ إِذِ الأُولىٰ كانت فاتحة الانتصارات علىٰ الإخوة وأبناء العمومة ممن استحبوا الكفر علىٰ الإيمان، وهمُّوا بإخراج الرسول، وهم بدؤوكم بالقتال أول مرة، فَأَحَلُّوا قومهم دار البوار، وأخذتهم البطشة الكبرىٰ؛ لأنك لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّون من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم، أو عشيرتهم.

وأما الثانية فقد كانت خاتمةَ الفتوح مع أهل مكة، تلك التي كسرتْ شوكة قريش، فوضعت الحرب أوزارها معهم، وحققت للمهاجرين حقَّ العودة إلىٰ ديارهم وأموالهم التي أُخْرِجوا منها بغير حقٍّ إلا أن يقولوا: ربنا الله؛ بل مهدت لدخول قريش في هذا الدين، ثم لدخول الناس في دين الله أفواجًا؛ ذلك أن العرب كانوا ينتظرون صراع النبيِّ عليه الصلاة والسلام مع قومه، فإن غلبوه فقد كُفُوه، وإذا ظهر عليهم دخلوا في الإسلام وافرين.

لذلك فإن فتح مكة قد فتح باب الدخول في الإسلام علىٰ مصراعيه، ودخل العرب في دين الله أفواجًا، وكانوا من قبل يتقاطرون إليه مثنىٰ وفرادىٰ، وربما مثنىٰ وثلاث ورباع، يزيد الله في الداخلين فيه ما يشاء.

إن من محاسن القَدَر أن يحتضن شهر رمضان أوَّل الفتح وخاتمته، وهو ما يعني أن الصائمين جديرون بالعزة والتمكين، فقد غَيَّروا ما بأنفسهم، فتحرَّروا من رِقِّ الشهوة، وأَسْرِ الحياة الدنيا وزينتها، ولم يعودوا يَفِرّون من الموت، بل هو أسمىٰ أمانيهم عندما يكون موتًا أو قتلًا في سبيل الله، حرصًا منهم علىٰ الحياة، ولكنْ في جوار الله، وفي صحبة النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، ذلك أن تغيير الواقع الخارجي رهينٌ بتغيير النفوس وما بهـا من عقائد، ومفاهيم، وأفكار، ودوافع، ونوايا، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًا فشرٌّ.

هذا، وقد شهد شهر الصيام عددًا من المعارك الفاصلة في تاريخنا الإسلامي الجهادي، ومن ذلك أن طارق بن زياد قد تمكن من فتح الأندلس في أوائل التسعين من القرن الأول الهجري، وقد عَمَّرَ الإسلام هناك ثمانية قرون، كادت الأندلس أن تضيع قبل مضي شطر تلك القرون، لولا أن ملوك الطوائف فيها قد استنصروا في الدين إخوانهم المرابطين في المغرب العربي، فزحف الإمام القائد يوسف بن تاشفين بنفسه، واشتبك مع الفرنجة في رمضان من عام ٤٧٩هـ، واستطاع – بفضل الله– أن يلحق بالصليبين هزيمة ساحقة في معركةٍ عُرِفَتْ باسم الزلَّاقة علىٰ أرض فرنسا، ولو أن إمام المرابطين قد واصل فتوحاته لكانت اليوم أوروبا دارًا للإسلام، ولكان القرآن يُدَرَّسُ في جامعات موسكو ولندن وبرلين وباريس، كما يقول أحد المؤرخين الألمان.

ومن المعلوم أن فتح عَمُّوريَّة من بلاد الأتراك وقعت في رمضان كذلك من عام ٢٢٣هـ؛ حيث إن المعتصم بالله ابن هارون الرشيد قد تولىٰ الخلافة من بعد شقيقه المأمون في عام ٢١٨هـ، فانتفضت عليه بعض المدائن، فاشتغل بإخماد ذلك الفلتان الداخلي، فيما عرف يومها بثورة بابك، وقد انتهز زعماء الدولة البيزنطية النطاح الداخلي، فأغاروا علىٰ مسقط رأس المعتصم، واستباحوا مدينة زبطرة، ومَثَّلوا بأهلها، وأعملوا فيها الخراب، فلما أَخْمَدَ الفتنة الداخلية توجه

تلقاء أنقرة ففتحها؛ ليمهد الطريق إلىٰ عَمُّوريَّة، وقد تزامن ذلك مع صرخة امرأة مؤمنة، اعتدىٰ عليها بعض علوجهم، وهي تبيع شيئًا في أحد أسواق عمورية، فاستغاثت: (وامعتصماه)، فنقلها إليه ثقةٌ كان في السوق، فقرَّر أن ينصرها، وقد تمكن من إخضاعها، وكان الأسرىٰ يناهزون الثلاثين ألفًا، والقتلىٰ لا يحصون كثرة، كما أنه أباحها أربعة أيام؛ فإنَّ الحرماتِ قصاص، لذلك فإن النيران قد الْتهمتْ المزيد من عُمْرَانِها؛ حتىٰ لا تتكرر جريمة زبطرة ثانية، وتلك المعركة كانت هي فتح الفتوح الذي تعالىٰ أن يحيط به نَظْمٌ من الشعر، أو نَثْرٌ من الخُطَب- كما يقول أبو تمام- في قصيدته الشهيرة التي جعل السيف فيها أصدق إِنباءً من الكتب.

ولعل معركة عين جالوت في شمال فلسطين التي صَدَدْنا فيها المغول الزاحف علىٰ الحضارة الإنسانية تُعَدُّ من أَفْضل المجابهات في التاريخ، ومن أفضلها كذلك، فقد هجم التتار علىٰ العالم الإسلامي قريبًا من عام ٦٥٠هـ، فأخضع الجزيرة العربية، وفي عام ٦٥٦هـ كان قد اجتاح بغداد، وأعمل السيوف في رقاب أهلها، ولم يَنْقُصِ القتلىٰ في أربعين يومًا عن ثمانمائة، بل إن بعض المؤرخين ليرتفع بعددهم إلىٰ مليونين، ثم زحف إلىٰ الشام، وخدع بعض مُدُنِها بالأمان، فاستسلموا، فترك في حلبٍ وحدها خمسين ألف قتيل، ثم تطلعتْ أنظارهم إلىٰ الهيمنة علىٰ مصر، فقررتْ دولة المماليك أَلَّا تنتظر وصولهم، فزحف سيف الدين قطز، ومعه قائد جيشه الظاهر بيبرس، علىٰ رأس جيش من المماليك، والمصريين، وكبار العلماء الربانيين، كالعزِّ بن عبد السلام، وكان اللقاء في الخامس والعشرين من رمضان لعام ٦٥٨هـ، وقد شهدت عين جالوت، وفي يوم الجمعة، مواجهاتٍ طاحنة، تمخضت عن انكشاف المغول، وتقهقرهم، وقد ظلَّت المطاردة تلاحقهم حتىٰ تطهَّرت من دنسهم الشام بكاملها.

وأما العراق فقد شاء الله أن يقذف الإيمان في قلوب بعض أقرباء هولاكو،

وهو القائد العام، والمقربين منه، فتحولت أسيافهم إلىٰ رقاب إخوانهم نسبًا، وإلىٰ نصرة إخوانهم في الدين، فكفىٰ الله المماليك الزحف إلىٰ بغداد أو الجزيرة، إذْ إنهـم ارتدَّوا علىٰ أدبارهم بمقتل هولاكو نفسه علىٰ يدي ابن أخيه، أو أحد ذويه، ممن أسلم، وحَسُن إسلامه.

ولا يتسع المقام لملاحقة كلِّ أيام الله التي أكرمنا بها في رمضان، حتىٰ أتمكن من التعريج علىٰ تأويل السورة المدونة في هامة المقال.

إنهـا تنطوي علىٰ الإعجاز بالإخبار بالغيب المبشِّر بمجيء نصر الله علىٰ بني العمومة والقبيلة، ذلك النصر الكبير الذي يصاحبه فتح مكة، وهيمنة الجيش الإسلامي عليها، بحيث ينتهي الخطر القرشي الذي تحدىٰ في بدرٍ، وأُحُدٍ، والخندق، والحديبية، وغيرها، خاصةً وأن الناس سيدخلون بعده في دين الله أفواجًا، فإذا الذي بيننا وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم.

وإذا علت راية الإسلام في الجزيرة، وتطهرت من الشرك والوثنية؛ فقد تمَّتْ الرسالة، وآن لك أن تستريح في مقعد صدقٍ عن مليكٍ مقتدر، فاجتهدْ فيما تبقىٰ من الأجل في التسبيح بحمد ربك، وفي نافلة الصلاة من آناء الليل وأطراف النهار؛ لعلك ترضىٰ، وأضفْ إلىٰ ذلك تكثيف الاستغفار؛ فإن الله كان توابًا علىٰ من يسبح بحمده ويستغفره.

وعلىٰ الرغم من أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو معصوم ابتداءً من الكبائر، حتىٰ قبل النبوة، ومن الصغائر الدالة علىٰ الخسة ونقصان المروءة كذلك؛ إلا أنه كان يستغفر في اليوم قريبًا من مائة مرة، بل كانوا يَعُدُّونَ له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة أن يقول: «ربِّ اغفرْ لي، وتُبْ عليَّ؛ إنك أنت التوابُ الرحيم»، والمطلوب اليوم أن يزداد من التسبيح والتحميد والاستغفار، فقد ضاقت فسحة الأمل، وقد نَعَتْ إليه هذه السورة أجله.

إن الصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، هم الأجدر بالنصر والتمكين، فقد غَيَّروا ما بأنفسهم، وانتصروا علىٰ أهوائهم وشهواتهم، فتحرَّروا من الوَهْنِ والضعف والاستكانة، وتطلعوا إلىٰ المغفرة والجنة، فكانوا حقيقين بالعلاوة، وهي نَصْرٌ من الله، وفتحٌ قريب، وبَشِّر المؤمنين.

اللهم نصرك الذي وعدتنا، والفتح المبين.

دهشة النصر في بدر تتبدد بمحاكمة فراعنة مصر، وبآيات الله الكبرى في هذا العصر

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]

بعد الانتصار العظيم في معركة بدر الكبرىٰ كان نزول سورة الأنفال بكاملها، وقد استثمرت ذلك الحدث الكبير لكثير من التوجيهات، سواء تعلقت ببعض الأخطاء التي نَدَّتْ من قلةٍ من الصحابة؛ كالاختلاف في الغنائم، أو كراهية لقاء النفير، وتعلق القلوب بالعير؛ لأنها الطائفة غير ذات الشوكة، فلما تأكد إفلاتها، وأصبح لا مفَّر من منازلة النفير؛ جادل بعضهم في ذلك الحق بعدما تَبَيَّنَ، كأنما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون، أو كانت تلك التوجيهات نداءاتٍ ربانيةً للذين آمنوا، في صورة تكاليف ليلتزموا بها في المجابهات القادمة.

وقد جاءت آية المقال في سياق الدعوة إلىٰ الحياة بالاستجابة لله وللرسول، ولا شكَّ أن القتال في سبيل الله دعوة إلىٰ الحياة بأسمىٰ معانيها، وإنْ كان ظاهر الأمر أن الاشتباك مع العدو يُودي بحياة ثلة من الشهداء، غير أن ذلك العدد المحدود منهم هو المهر الضروري للعزة والتمكين؛ لنعيش آمنين في ديارنا، ولنتقلب في البلاد وأعداؤنا وَجِلُونَ من أن يمسونا بسوء.

إن إعداد القوة ابتداءً نشاطٌ وحياة، وإن الرباط والحراسة انتباهٌ وحياة، وإن القتال نفسه كرامةٌ وحياة، وإن الانتصار والفوز من بعدُ عزةٌ وحياة، وإن رهبة العدو منكم أَمْنٌ وحياة، فلأنتم أشدُّ رهبة في صدورهم من الله، وقد نصركم الله بالرعب مسيرة شهر؛ فإنهم لا قِبَلَ لهم بجنودٍ يحرصون علىٰ الشهادة في سبيل الله

حِرْصَ الحربيين علىٰ الحياة؛ إيمانـًا منا بأن الشهداء أحياءٌ عند ربهم يرزقون.

وقد عقَّب علىٰ الدعوة إلىٰ الحياة بأن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنكم إليه تحشرون، فأين المفر؟!، إن قلوبنا في الدنيا بيد بارئها، ولو شاء أن يقهرها علىٰ الهدىٰ قهراً لفعل، لكنه أراد لنا أن نعبده اختياراً لا اضطراراً؛ فإن ذلك عين الحرية والكرامة، فضلاً عن استحقاق الأجر في الدنيا والآخرة، ثم إن الإياب إليه، فإنه إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون، وسيقول الأكثرون: يا ويلنا مَنْ بعثنا من مرقدنا، ويضيفون: يا ويلتنا مالِ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم.

ثم حَذَّرنا من بلاء أو ابتلاءٍ وفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، بل تعم الجميع؛ فإن الله شديد العقاب، فإنكم إن لا تنفروا يعذبكم عذابـًا أليمـًا، ويستبدل قومـًا غيركم، ولا تضروه شيئـًا، ولكم أن تتخيلوا ما يصنع بكم أعداؤكم لو انتصروا عليكم، وهم الذين لا يرقبون في مؤمنٍ إلَّاً ولا ذمة، ويودون لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة، فريقـًا يقتلون، ويأسرون فريقـًا، ويومئذٍ سيكون عدد الشهداء أضعافـًا مضاعفة بالقياس إلىٰ الذين يُقتلون وهم يدافعون مقبلين غير مدبرين، فتكون الحياة قد كُتبتْ للآلاف الذين نَجَوْا من المجزرة بالمقاومة وأنتم أذلة أقلة.

أما آية المقال التي جاءت بعد كل هذه المعاني فتدعو إلىٰ المقارنة بين عهدين؛ كيف كنتم قبل بدرٍ، وكيف صرتم بعدها؟!.

أما أولاً فقد كنتم قليلاً من حيث العدد، مستضعفين من حيث العدة، تخافون أن يتخطفكم الناس، فتهاجرون حينـًا إلىٰ الحبشة، وتلجؤون حينـًا إلىٰ شِعْبِ أبي طالب تحت الحماية المشددة لبني هاشم وبني المطلب، فما الذي حصل بالهجرة ابتداءً، وبالنصر انتهاءً؟!، لقد آواكم إلىٰ المدينة، فوجدتم قومـًا تَبَوَّؤُوا الدار والإيمان من قبل وصولكم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في أنفسهم

حرجًا مما أُوتيتم من دونهم، بل يؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فقد أُخرجتم من دياركم وأموالكم فقراء تبتغون فضلاً من الله ورضوانًا، وتنصرون الله ورسوله.

إن الله تبارك وتعالىٰ قد كَثَّركم بالأنصار، ونصركم ببدر وأنتم أذلة، فلم تعودوا خائفين من التخطف، كما رزقكم من الطيبات بتلك الأنفال والأموال التي غنمتموها من العدو، فلم تعودوا فقراء محتاجين إلىٰ إيثار الأنصار لكم علىٰ أنفسهم، وكان بذلك قد عَوَّضكم عما فقدتموه بالهجرة من الأموال والأرزاق.

وقد ختم الآية بالتنبيه علىٰ وجوب الشكر لكل تلك المِنَنِ والأفضل؛ فإنكم لئن شكرتم ليزيدنكم، وإن أعظم الشكر ما كان عملاً صالحًا، ولا شك أن الاستجابة لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم هو من أعظم الشكر علىٰ إيوائكم ونَصْرِكم ورزقكم من الطيبات، وقد عاد يوم أُحُدٍ لِيُذَكِّرَ بنعمة النصر يوم بدر، وأمرهم بتقواه لعلهم يشكرون، فقال سبحانه في آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الآية: ١٢٣]

فإذا عدنا من استدعاء التاريخ إلىٰ الواقع، وخاصة بعد معركة الفرقان الأخيرة؛ لنستحضر أَنْعُمَ الله علينا فنشكرها؛ أمكننا أن نقول:

منذ قدمت السلطة الفلسطينية متعهدةً للاحتلال في أوسلو بقمع انتفاضتنا الأولىٰ، وتحجيم الدعوة الإسلامية وحركة حماس، بل وبإعداد الشعب الفلسطيني للقبول بالتطبيع مع العدو، حين يتخلىٰ عن دينه وأخلاقه، وعن أعرافه وعاداته؛ لصالح الملاهي والمقاهي، والشاليهات والكازينوهات؛ فقد أمسينا مستضعفين، نخاف أن تتخطفنا الأجهزة الأمنية، أو الاحتلال نفسه، فقد أصبحت وطأة كل جهاز أمني علينا كالحجارة أو أشدَّ قسوةً، وقد صبرنا علىٰ إيذائهم، وتوكلنا علىٰ الله، فإنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا؛ إن الله بما يعملون محيط.

لذلك فإنه ما إنِ اندلعت الانتفاضة الثانية حتىٰ صار الاحتلال في رُعبٍ وخوف في بضع سنين، فخرج من غزة مذؤوماً مدحوراً مطمئناً إلىٰ أن مَنْ تبعه منا سيقوم بالمهمة الأمنية، وقد جربوا الحصار، والفلتان، والقتل علىٰ اللحية، فأمكننا الله منهم، ونَعُمَ القطاع بأمنٍ ما كان بالخيال، لولا أنه تجسد علىٰ الأرض.

إن دحلان والوقائي، وأذرعه في الأجهزة الأمنية الأخرىٰ، أولئك الساقطون في حبائل المال والنساء والعمالة، هم الذين شرخوا الشعب الفلسطيني بين فتحٍ وحماس، وهم اليوم يشرخون حركة فتح نفسها بين دحلان وعباس، وهذا من آيات الله أن تكون العقوبة من جنس العمل، ومن عجبٍ أن يقرر أبو مازن أن يقطع رواتب زبائن دحلان في السلطة، وهم الذين طالما كانوا وراء قطع رواتب الناس علىٰ خلفية التدين وتأييد المقاومة، فهم يشربون من نفس الكأس الذي تجرع الناس علقمه بسبب ما سُمِّي بالسلامة الأمنية، ويعنون بها السلامة من التدين الحقيقي والإيمان بالمقاومة!!.

إن الحكومة المصرية التي حاصرتنا مع الصهاينة، وأعلنت الحرب علينا، قد جعل الله أعزة رموزها أذلة وهم يُساقون إلىٰ القفص، ويواجهون الحكم بالإعدام؛ نزولاً عند أدنىٰ مظالم الشعب المصري أو مطالبه، وأيُّ حاكم عربي، وأيُّ أزعرَ في سلطةٍ، بات محصناً من أن يُقْحَمَ في القفص، وأن يُساق إلىٰ المقصلة بعد فرعون الصغير؟!!. أما الصهاينة فقد أمسوا عاجزين عن لجم المقاومة، أو الحيلولة دون اسْتِغْلاظِها، واستوائها علىٰ سُوقها، فلذلك قامت فيهم ثورة لإسقاط الحكومة العاجزة عن تحرير شاليط، فضلاً عن تحقيق الأمن بضعضعة المقاومة.

وأما الأمريكان فقد تلقوا ضربة أودتْ بالعشرات من الوحدة الخاصة التي اغتالت الشهيد أسامة بن لادن رحمه الله مؤخراً، ولسوف تخرج تجرُّ أذيال الهزيمة من العراق وأفغانستان، ولسوف تفكك كثيراً من مستوطناتها العسكرية في الدول العربية والنفطية عما قريب إن شاء الله، خاصةً وأن مستوطنة الاحتلال

الصهيوني في فلسطين أضحت عبئًا علىٰ الأمريكان، بعد أن عجز كيانهم عن تحقيق أمن نفسه، فضلاً عن حماية مصالح أمريكا.

فإذا نظرنا إلىٰ محرقة لندن والمدن البريطانية أَيْقَنَّا أن الله يمهل ولا يهمل، وليس غافلاً عما يعمل الظالمون، ولعل بشائر انتصار القيادة السياسية علىٰ قادة العسكر العلمانيين في تركيا تزيد المشهد يقينًا بتأييد الله لنا بنصره، وأنه سيرزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون، ولا زلنا موقنين بالمزيد.

ولله الحمد من قبل ومن بعد

الصوم توأم الجهاد
لتحرير العباد وتطهير البلاد

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]

إن كثيراً من الناس لا يرون في رمضان إلا الحرمان من طيبات الحياة الدنيا، فالصائمون يعانون الجوع والعطش انتظاراً لمغرب الشمس، ثم لِأُفُولِ الشهر، يُعَزِّيهم في ذلك أنهم بالصوم يظفرون بالتقوىٰ، ومن يتق الله يكفرْ عنه سيئاتِهِ، ويُعْظم له أجراً.

إن الصحيح أن ركن الصيام قد شُرع لتحقيق مقاصدَ كبرىٰ، كلُّها تندرج في التقوىٰ، وقد رأيت في هذا المقال أن أتناول إحدىٰ تلك العلل الكبرىٰ؛ لِنرىٰ في الصيام قرة عينٍ، ولذة فؤاد، يجعلنا نرجو أن يكون رمضان العامَ كلَّه؛ حتىٰ لا تنقطع تلك السعادة التي لو عرفها الزعماء والرؤساء لَجَالَدونا عليها، خاصة وأننا في مسيس الحاجة إليها في جهادنا لتحرير الأسرىٰ والمسرىٰ، وكل فلسطين.

إن تلك الحكمة هي التدريب علىٰ أعباء الجهاد والتعبئة بها؛ ليكون الصائمون إيمانًا واحتسابًا أكثرَ القوم ثباتًا وصموداً؛ بل جهاداً وجلاداً، حتىٰ لو انقطع المدد، وأَمْضَوْا أياماً معدوداتٍ من غير ماءٍ أو أقوات، كما حصل في بعض الغزوات، حين شَحَّتِ الأمداد، وكان نصيب الواحد منهم تمرةً واحدة في كل أربعٍ وعشرين ساعة، يأخذ منها مَصَّةً أو مصتين كلما آذاه الجوع، ويشرب عليها

الماء، ثم انبرتْ أيام جُوعٍ بعدها لم يكونوا يجدون تلك التمرة، لكنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضَعُفُوا، وما استكانوا، والله يحب الصابرين.

إن آية التوبة هذه تتحدث عما يصيب المجاهدين من الظمأ، والنصب – وهو شدة التعب–، والمخمصة –وهي أشدُّ الجوع–، وأن كل ذلك لا يبيح لأهل المدينة، ومن حولهم من الأعراب، أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، فالنبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، ولا يُؤْمِنُ أحدكم حتىٰ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين، وحتىٰ من نفسه التي بين جَنْبَيْه.

وإذا كانوا يتخوفون من الجوع والظمأ فَلْيَعلموا أن هذا من الجهاد الذي يُكتب لهم به عملٌ صالح، فالله تبارك وتعالىٰ لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثىٰ، وحَرِيٌّ بِمَنْ عَضَّهم الجوع، فباتوا علىٰ الطوىٰ، أو اكْتَوَوْا بالصَّدىٰ وفَقْدِ الماء، فكادت تندق أعناقهم، أن ينظروا جنةً عرضها السموات والأرض، أُكُلُها دائم وظلها، في سدرٍ مخضودٍ، وطلحٍ منضود، وظلٍّ ممدود، وماءٍ مسكوب، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً، عيناً فيها تسمىٰ سلسبيلا، فضلاً عن أنهارٍ من ماء غير آسنٍ، وأنهارٍ من لبن لم يتغير طعمه، وأنهارٍ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وانهارٍ من عسل مُصَفًّىٰ، ولهم فيها من كل الثمرات، ومغفرةٌ من ربهم، ورضوان من الله أكبر.

إذاً فالصوم تدريب علىٰ احتمال ما يصيب المجاهدين من الظمأ والنصب والمخمصة، فيكونون أقدر علىٰ التجلد لها؛ فإن جيوش الجوع والعطش أَفْتَكُ بالجيوش من عدوهم، ذلك أن الذي لا يصبر علىٰ شهوة الطعام والشراب لا يصبر علىٰ شهوة الحياة، فإذا حَمِيَ الوَطيس، واحْمَرَّ البأس، رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشيِّ عليه من الموت، حتىٰ لكأنما يُساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون.

ألم تروا إلىٰ طالوت الذي أُوتي بسطة في العلم والجسم كيف يقول للجنود:

إن الله مبتليكم بنهرٍ، فمن شرب منه فليس مني، ومن لم يطعمه فإنه مني؛ إلا من اغترف غرفةً بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، فلم يجدْ لهم عزمـًا، ورضوا أن يكونوا مع القاعدين، فكان مثلهم كالذين قالوا لموسىٰ عليه السلام: اذهب أنت وربُّك فقاتلا؛ إنا ههنا قاعدون.

ومن معاني الجهاد في الصوم أنه معركة تُخاض مع النفس الأمَّارة بالسوء، والنفسُ كالطفل في حُبِّ الشَبِّ علىٰ الرضاع، وإن تفطمه ينفطم، وفطام النفس بالصوم، وإذا كان الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم حتىٰ يُغَيِّروا ما بأنفسهم؛ فإن الصيام سبيل نقلها من اهتمامات الطفولة إلىٰ الشعور بالرجولة، فإذا صارت النفوس كباراً تَعِبَتْ في مُرادها الأجسام.

ثم إنه معركة مع الشيطان الذي يُزَيِّنُ للإنسان سوء عمله، فيراه حسنـًا، وإن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدواً؛ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وهو الذي يخوفكم أولياءه، فلا تخافوهم وخافونِ إنْ كنتم مؤمنين، ولا تتبعوا خطوات الشيطان؛ إنه لكم عدوٌّ مبين.

ومن بعد ذلك فالصوم مدرسة في جهاد الدنيا التي أخذتْ زخرفها، وازَّيَنَتْ، فَغَرَّتْكُمْ بزهرتها، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، ولا زالت معظم الهزائم من خور العزائم أمام الوظائف والفواحش.

إن من انتصر بالصوم علىٰ هؤلاء الأعداء في معركته الداخلية حقيقٌ أن يحقق النصر في معركته الخارجية، حين يجاهد الكفار والمنافقين، ويغلظ عليهم، وحين تقاتلون المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.

إن الصوم رباط علىٰ حدود الله فلا تقربوها، وهو حراسةٌ للنفس من الجنوح أو الجماح للمعصية بقوة الوازع الديني، والهيبة من الله ذي الجلال والجبروت،

وحَرِيٌّ بمن دأب علىٰ هذا الرباط، فكان ممن صبروا وصابروا ورابطوا، أن يستسهل الرباط في الثغور، فلا تؤتىٰ الأوطان من قِبَلِه.

إنه من الواجب أن نؤكد أن الشهوة رِقٌّ وعبودية، وأن الواقعين في أَسْرِها قد فقدوا الحرية، فَأَمْسَوا مماليك لها، وأنَّىٰ لفاقد الحرية أن يمنحها للبلاد أو العباد؟!، فالصوم إذاً إفلاتٌ من الأَسْر، وتحررٌ من الرقِّ، وإن الذي يَكِرُّ وهو حُرٌّ يفوز بالنصر والظَّفَر، فلا يُرَكِّعُه قول امرأة ذاتِ منصبٍ وجمال: (هَيْتَ لك)، ولا يسجد لهدية بلقيس، بل يقول: ﴿أتمدوننِ بمالٍ، فما آتانيَ الله خيرٌ مما آتاكم؛ بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾؛ فإن الذين يؤثرون أموالاً اقترفوها، وتجارة يخشون كسادها، ومساكن يرضونها، علىٰ الله ورسوله، وجهادٍ في سبيله، فليتربصوا حتىٰ يأتي الله بأمره؛ فإنكم إنْ لا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تَضُرُّوهُ شيئاً، ولسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه، أذلةٍ علىٰ المؤمنين، أعزةٍ علىٰ الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

فإذا انضاف إلىٰ الصيام إخراج زكاة الفطر، وزكاة المال، والصدقة المدرار، كان ذلك جهاداً بالمال، إلىٰ جانب الجهاد بالنفس في الصيام، فكانوا بذلك مؤهلين لينفروا خِفافاً وثِقالاً، وليجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلال؛ بل إنه كُرُباتٌ وأهوال من الله شديدِ المحال.

ولا شكَّ أن رمضان شهر القرآن، والمؤمنون إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وإن القرآن أفضل كتابٍ للتعبئة والتحريض علىٰ القتال؛ فإنكم إن تقاتلوا أعداءكم يعذبهم الله بأيديكم، ويُخْزِهم، وينصركم عليهم، ويَشْفِ صدور قومٍ مؤمنين.

ألم تَرَوا إلىٰ الصحابة في الحديبية وقد نفد زادهم فابتلاهم الله بشيءٍ من الصيد تناله أيديهم ورِماحُهم، فلم يُقْدِمْ أيٌّ منهم علىٰ انتهاك حرمة الإحرام أو الحرم، فإن مَنْ دخله كان آمناً، وحُرِّمَ عليكم صيد البر ما دمتم حرماً، لذلك

فقد نصرهم الله بالرعب، وهم يبايعون جياعـًا تحت الشجرة، فمالت قريش إلىٰ الصلح، وفتح الله به لنا فتحـًا مبينـًا.

ثم إنهم يوم خيبر قد نزل بساحتهم الجوع، فلما أَمْسَوْا وجدوا حُمُراً أهلية، فذبحوها؛ حتىٰ إذا نضجت لحومها أُمِرُوا بإكفاء القدور، وباتوا علىٰ الطوىٰ، ثم حُرِّمَ نكاح المتعة فما انتهكه أحدٌ، رغم شدة الشوق أو التوق إليه، فكانوا جديرين أن يَهْزِمَ الله جل جلاله اليهود بالرعب، ولا زلنا مؤملين أن يكون جيوش الصائمين المرابطين قادرين علىٰ إساءة وجوههم، وتتبير ما عَلَوْا تتبيرا. وما ذلك علىٰ الله بعزيز

الصائمون رجال لا يركعون للمال، ولا يسجدون للجَمَال، فَيُجَنْدِلون الأبطال

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]

تناولت في المقال الماضي طرفًا من أسباب شقاء البشرية منذ أغرىٰ إبليس اللعين أبانا آدم عليه السلام وزوجه بتلك الأكلة المشؤومة، فأخرجهما مما كانا فيه من رغد العيش المجاني، وصار الوصول إلىٰ الحاجات بِشِقِّ الأنفس، ثم كانت مصيبة القتل بدافع غريزي؛ حيث حسد قابيل أخاه هابيل علىٰ مخطوبته الوضيئة، فَطَوَّعت له نفسه قتل أخيه؛ ليفوز بها فقتله، ومن يومها لم يُرْفَع السيف وآلاتُ الإبادة عن رقاب بني آدم، إلا في فترات يضمحل فيها القتال إلىٰ حَدٍّ كبير، يوم تكون السيادة لشريعة الله، وحين يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ولكم في القصاص حياة، وبعد الإثخان تضع الحرب أوزارها حتىٰ حين، أو عدد سنين.

وكنت قد عَرَّجْتُ علىٰ الإطاحة ببني إسرائيل من قمة التفضيل علىٰ العالمين، إلىٰ مسخ بعضهم قردةً وخنازير، وضَرْبِ المثل لهم بالحمار يحمل أسفاراً، ولبعض علمائهم بالكلب؛ إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، ويعود السرُّ في ذلك إلىٰ هزيمتهم أمام أمعائهم وأَبْضاعِهِم، فهم الذين قالوا: لن نصبر علىٰ طعامٍ واحد، ثم قالوا لنبيٍّ لهم: هل يستطيع ربُّك أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً من السماء، يريدون بذلك أن يأكلوا منها، ولذلك فقد أَخَذوا الربا، وقد نُهُوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وكانت أول فتنةٍ وقعوا في أوحالها، أو أدناسها، هي النساء، وجعلوا يشترون الضلالة، ويريدون أن تضلوا السبيل، لكنَّ الله عز وجل قد نهاكم أن تتبعوا أهواء قومٍ قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل.

وفي هذا المقال أذكر الصورة المقابلة، صورة المتقين الذين انتصروا علىٰ النفس الأمارة بالسوء، وعلىٰ الدنيا متاعِ الغرور، ولما كانت بضدها تتبين الأشياء فقد رأيت أن أسوق نماذج من الذين تلوثوا بعبودية المال، أو ركعوا أمام الجَمال، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

إن آية المقال تتحدث عن عفة مريم ابنة عمران رضي الله عنهما، تلك التي أحصنت فرجها، وصَدَّقَتْ بكلمات ربها وكتبه، وكانت من القانتين؛ إذ إن الله جل جلاله لما أرسل لها جبريل؛ لِيَهَبَ لها غلاماً زكياً؛ كان قد تمثل لها بشراً سوياً، ولم يخبرها من فوره أنه رسول ربها، فاعتقدت أنه آدمي، وتوجستْ أن يريد بها شراً، فاستعاذتْ بالله من شَرِّه، ووعظته بالتقوىٰ ومخافة الله، وقالت: « إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا»، ولم تذكر جواب الشرط اكتفاءً بفهمه من المقام، والتقدير: إن كنت تقياً فالتقي لا يضمر الفاحشة ولا يَقْرَبُها.

وهي بهذا تشير إلىٰ أن التقوىٰ -وهي خُلُق الصائمين- عصمة من الفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ فإن الصوم وِجَاءٌ منها، كما جاء في حديث العاجز عن استطاعة الطَّوْل إلىٰ النكاح، وهو المسمىٰ بالباءة؛ إذ يُسْتَحَبُّ له الصوم كسراً للشهوة، وإضعافاً للتوقان.

ومن نماذج الاستعصام بالله أمام جماح الغريزة سيدنا يوسف عليه السلام، وهو الذي كان يشبه الملائكة الكرام البررة في جَمَاله، وكان يتوقد شباباً، فلم تُطِقِ امرأة العزيز الصبر عنه، فَغَلَّقَتِ الأبواب، وتهيأت له، لكنه سرعان ما استعاذ بالله، مذكراً بأن سيده قد أحسن مثواه، ولا يليق به أن يخونه في أهله، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، والأهم من ذلك عين الله التي لا تأخذها سِنَةٌ ولا نوم، فهو حيٌّ قيوم، يعلم خائنة الأعين وما تخفىٰ الصدور، وإنَّ أَخْذَهُ أليم شديد؛ فإنه لا يفلح الظالمون، فلما جعلت بقية النسوة يُراوِدْنَه عن نفسه؛ قال: ربِّ السجن أحبُّ إلىٰ مما يدعونني إليه.

وإذا كان سيدنا يوسف عليه السلام مثالاً للعفة والكرامة؛ فإننا نرىٰ في امرأة العزيز وصويحباتها نموذج الانحراف والانحلال، شأن معظم نساء القصور من المترفين علىٰ مَرِّ السنين.

وإن من أمثلة الراكعين للشهوة الساجدين تحت أقدامها قومُ لوط الذين كانوا يأتون الذُّكْرانَ من العالمين، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وأضافوا إليه أنهم كانوا يقطعون السبيل لِلنَّزْوِ علىٰ السَّيَّارة المسافرين، ولا يتورعون أن يقترفوها أمام الناظرين، فقد أَتَوْا في ناديهم المنكر، لكنَّ الله جل جلاله قد جعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

ومن أمثلة المحصنات الغافلات المؤمنات ممن أُلْصِقَ بهنَّ الإفك زوراً وبهتاناً السيدةُ عائشة رضي الله عنها، إذْ رماها بذلك رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، وخاض بعض الصحابة مع الخائضين، حتىٰ أنزل الله براءتها، وعقَّب علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]

والمقصود بِالمَثَل هنا مَنْ لُطِّخَتْ أعراضهم، ثم تبين أن الأنباء لا أصل لها، من مثل سيدنا يوسف عليه السلام، ومريم ابنة عمران رضي الله عنها.

فإذا الْتفتنا إلىٰ الشهوة الأخرىٰ شهوةِ المال وجدنا من المهزومين في ميدانها قوم شعيب؛ فقد كانوا إذا اكتالوا علىٰ الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون، وقد نصحهم نبيهم أن يوفوا الكيل، ولا يكونوا من المخسرين، وأن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وألَّا يبخسوا الناس أشياءهم، وأَلَّا يَعْثَوْا في الأرض مفسدين، فأنكروا عليه أن تكون صلاته تأمره أن يتركوا أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، واستهزؤوا به حين قالوا: إنك لأنت الحليم الرشيد، فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

ومن نماذج الناسكين في محراب المال قارون، فقد رضي أن ينسلخ من الولاء لبني إسرائيل، وهو منهم، ليكون أداة في ذراع فرعون في البغي عليهم، وقد امتلك من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أُولي القوة، فلم يبتغ فيما آتاه الله الدار الآخرة، ولم يحسن كما أحسن الله إليه، إنما بغىٰ فساداً في الأرض، وخرج علىٰ قومه في زينته، فخسف الله جل جلاله به وبداره الأرض، وما كان من المنتصرين.

وكان ممن تطلعوا للمال سحرة فرعون الذين راحوا يبتزونه وهم يرونه حيرانَ وَجِلاً من قوة آيات سيدنا موسىٰ عليه السلام، فقالوا: أَئِنَّ لنا لأجراً إنْ كنا نحن الغالبين؟، قال نعم، وإنكم إذاً لمن المقربين، فقد أغراهم بالمناصب، وأن يكونوا من حاشيته المقربين، لكنَّ السحر والزيف لا يصمد أمام المعجزة، فَخَرُّوا سجداً، وقالوا: آمنا بربِّ هارون وموسىٰ، وتأهبوا بعدم الهيبة من فرعون ليكونوا المُفَضَّلين علىٰ العالمين، لكنْ قد خلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنىٰ، ويقولون: سيغفر لنا، وإنْ يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه، فأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهواتِ، وكان من نبأهم ما قد عرفتم في صدر المقال.

أما أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم الذين ورثوا الكتاب، فصاروا أئمة يَهْدُونَ بالحقِّ، وبه يعدلون، فقد انتصروا علىٰ تلكما الشهوتين، وما وراءهما من المنكرات والمغريات، فكانوا خير أمةٍ أُخْرِجتْ للناس، وكانوا في الحديبية قد أخذتهم المخمصة، فابتلاهم الله بشيءٍ من الصيد تناله أيديهم ورماحهم؛ ليعلم الله من يخافه بالغيب؛ ذلك أنهم مُحْرِمون بالعمرة، وقد حَرَّم عليكم صيدَ البر ما دمتم حُرُمـًا، كما أنهم في أرض الحرم، ومَنْ دخله كان آمنـًا، فما سجَّل التاريخ أن واحداً منهم قد هزمته أمعاؤه، لذلك فقد ألقىٰ الله جل وعلا الرعب في قلوب المشركين، فجنحوا إلىٰ الصلح عشر سنين.

وبعد شهرين كانوا في خيبر، فَعَضَّهم الجوع، فوجدوا حُمُراً أهلية، وحين نَضِجَتْ في القدور أُمِروا بإكفائها، وباتوا طاوين، وحَرُمَتْ منذ تلك الليلة، ثم

انضاف إلىٰ ذلك تحريم نكاح المتعة، فما سقط في اختباره أحدٌ، فكانوا جديرين أن يكونوا أمة وسطـًا شهداء علىٰ الناس، وما لهم لا يفعلون وهم الذين يصومون إيمانـًا واحتسابـًا، فينتصرون علىٰ أنفسهم وشياطينهم ودنياهم، ولا يستعبدهم الدينار والدرهم، ولا تهزمهم شهوة عابرة، انتظاراً لما عند الله من المغفرة والجنة ورضوان الله الأكبر؛ عطاءً غير مجذوذ، وأجراً غير ممنون، ثوابـًا من عند الله، والله عنده حُسْنُ الثواب.

الصوم عن المنكرات السياسية أوجب من الإمساك عن الأعلاف

﴿كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

أقبل علينا شهر رمضان، ولا زالت المنكرات السياسية تُراوحُ مكانها، فلا التعاون الأمني قد توقف، ولا حتىٰ خَبَتْ نيرانه، ولا استباحة الضفة الغربية، وتعطيل الجمعيات الخيرية قد خَفَتَ أُوَارُهُ، ولا زال المعتقلون في عرينهم مُقَرَّنينَ في الأصفاد، بل قد زادت وتيرة الاستدعاءات والملاحقات، حتىٰ طالت الصبايا والغلمان، فضلاً عن المحررين من قبضة الاحتلال، ثم حَدِّثْ ولا حرج عن المفصولين والمُرَقَّنة قيودُهم، وهم يَنيفون عن سُدُسِ أصحاب الوظائف العمومية.

ثم إن المصالحة معطلة عمداً ومع سبق الإصرار؛ لنقبل بإمساك زمام الحكومة برجلٍ رضي عنه اليهود والنصارىٰ، فقد وَرَّطَنا في مديونية صاروخية، كما تعهد بأمن الاحتلال ووفَّىٰ، فاستطاع الاحتلال أن يحكم السيطرة علىٰ بيت المقدس، ويقرر طرد المئات من خيرة أبنائها؛ بدءاً بوجبة النواب، لو لا أن الصمود يوشك أن يُفْشِلَ العدو، ويطوي ملف الإبعاد، فإذا الْتفتنا إلىٰ الضفة الغربية وجدنا الجدار والاستيطان يلتهم الشطر الأخصب فيها، والمقاومة مكبَّلة، بل ويُلْصِقُ بها أزلام السلطة القبائح والبذاءات.

ولعل رأس الموبقات هو استحقاق سبتمبر؛ حيث الأفلام في الإعلام بأننا علىٰ موعدٍ مع اعترافٍ دوليّ باستحقاقنا دويلةً علىٰ حدود الضفة والقطاع، وهو كلام ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قِبَلِهِ العذاب؛ فإن هذا السراب لو تحقق؛

فهو يعني مباركة أربعة أخماس فلسطين لليهود، وهو لا يختلف في جوهره عن إملاءات أوسلو، كما أنه ينطوي علىٰ الاعتراف بيهودية الدولة، وبذلك يصبح حقُّ العودة في خبر كان، وليس أمام اللاجئين المطرودين من ديارهم وأموالهم إلا القبول بالتوطين والتعويض، وأي تعويضٍ يحصلون عليه من اليهود الذين لا يُؤْتُونَ الناس نقيراً، بل يحسدون الناس علىٰ ما آتاهم الله من فضله؟!، فقد ضُرِبَتْ عليهم المسكنة، وغُلَّتْ أيديهم، فهم يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ولئن جرىٰ تعويضهم افتراضـاً فلن يعدو ثمنـاً بخسـاً دراهم معدودة.

ولا أستبعد أن نقع تحت ابتزازٍ ماليّ وسياسيّ؛ بدعوىٰ أننا محتلون لأرض الميعاد منذ الفتح الإسلامي قبل أربعة عشر قرنـاً، وأضعف الإيمان أن يكون من حَقِّ اليهود أن يقتلعوا إخواننا في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م، وهم يزيدون علىٰ المليون وربع المليون.

ولعله من المضحك المبكي أن يُسند متابعة ملف الاعتراف الإعلامي باستحقاقنا دولة إلىٰ زعيم وثيقة جنيف التي لم تُبْقِ ولم تَذَرْ، وانطوت علىٰ تصفية القضية الفلسطينية لصالح الاحتلال، وإن اختيار ياسر عبد ربه لهذه المباراة يجعل مَثَلَهُ كأفشل مُحامٍ في أعدل قضية، لكنها السياسة التي تضع الرجل غير المناسب في المكان المناسب؛ حتىٰ لا يخرج بأية مكاسب، فنحن في زمن الرويبضات الذين يحكمون في حقبة السنوات الخداعات، وما العناد في مسألة رئاسة فياض للحكومة إلا مثلٌ صارخ علىٰ تلك السياسة الرعناء إذا أَحْسَنَّا الظن، والصحيح هو ما جزم به العليم الخبير من أنه لن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارىٰ حتىٰ تتبع ملتهم، ومَنْ يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل، ولئن اتبعتَ أهواءهم بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين، ومالك من الله من وليٍّ ولا نصير.

إن آية البقرة تُنبِئُنا بإيجاب الصيام علينا كما فرض علىٰ الذين من قبلنا؛ تخفيفـاً علىٰ نفوسنا؛ فإن الابتلاء إذا عَمَّ هان، وتزيد ذلك تيسيراً عندما تكشف

عن حكمة ذلك الركن؛ فإذا هي التقوىٰ أو الوقاية من شرورٍ لا تحصىٰ كثرة في الدنيا، ومن كرباتٍ لا يعلمها إلا الله في الآخرة.

وحسبنا أن نعلم أن البشرية ما شقيت ابتداءً إلا من تلقاء بطونها وفروجها، فهذا أبونا آدم عليه السلام شقي هو وذريته من بعده بسبب أكلةٍ واحدة من شجرة بعينها، مع أنه كان في جنةٍ لا يجوع فيها ولا يَعْرَىٰ، وأنه لا يظمأ فيها ولا يضْحىٰ، ولكنْ ما الحيلة مع الجنس الآدمي الذي كان ظلوماً جهولاً، كما خُلِقَ ضعيفاً؟!.

أما ابن آدم الأول فقد حسد أخاه أنْ كانت مخطوبته أكثر وضاءة من المرشحة له، فَطَوَّعتْ له نفسه قَتْلَ أخيه فقتله ليفوز بها، وكان بذلك أول مَنْ سنَّ القتل عمداً عدواناً في الأرض؛ بدافع من الغريزة الجامحة، والحسد المَقِيت، ولا زالت الحروب الطاحنة، والبغي الداخلي، والعدوان الفردي، يزهق في كل يوم العشرات، أو المئات من الأنفس البريئة.

لذلك فإن الله جل جلاله حين يوجب علينا أن نصوم عن هاتين الشهوتين إنما أراد أن تتهذبا هما وسائر الجوارح؛ حتىٰ لا تَجُرَّ علينا من البلاء ما لا نطيق، فتمشي حياتنا ضنكاً، والذي خَبُثَ لا يخرج إلا نكداً.

انظروا إلىٰ بني إسرائيل، فقد فَضَّلهم ربهم علىٰ العالمين في حقبةٍ من التاريخ يوم كان فيهم أمةٌ يهدون بالحقِّ، وبه يعدلون، وكان فيهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون، فقد آتاهم الكتاب، والحكم، والنبوة، ورزقهم من الطيبات، وفَضَّلهم علىٰ العالمين.

لكنْ ما الذي دهاهم حتىٰ جعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت، وضرب لهم المثل بالحمار يحمل أسفاراً، ولبعض علمائهم بالكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث؟!!

إنها الشهوتان، فقد أطاحتا ببني إسرائيل، ونُقِلَتْ راية الدعوة والحكم والنبوة

لبني إسماعيل، وصرنا بذلك خيرَ امةٍ أُخرجت للناس، وجعلنا ربنا أمة وسطًا؛ أي خياراً عُدولاً؛ لتكونوا شهداء علىٰ الناس.

أما شهوة البطون فحسبنا أن نذكر بأنهم قد قالوا لموسىٰ عليه السلام: لن نصبر علىٰ طعامٍ واحد، ثم قالوا لعيسىٰ عليه السلام: هل يستطيع ربُّك أن ينزل علينا مائدة من السماء، فهم يريدون أن يأكلوا منها، وتطمئن قلوبهم بصدقه، ويكونوا عليها من الشاهدين، وهم السَّمَّاعون للكذب الأكَّالون للسُّحت، فقد أخذوا الربا وقد نُهُوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل هم وكثيرٌ من الأحبار والرهبان، فَصدُّوا بذلك عن سبيل الله.

وأما شهوة الفروج فقد كانت أول فتنة بني إسرائيل في النساء، وانتهىٰ بهم الأمر إلىٰ قتل الأنبياء، والإلحاد في حق رب الأرض والسماء، فقالوا: يَدُ الله مغلولة، وإن الله فقير ونحن أغنياء، وغير ذلك كثير.

إن ما أشرت إليه من الجرائم السياسية لا تخرج عن كونها أثراً لهاتين الشهوتين؛ إذْ ما الذي يجعل أكثر زعماء الأمة يرضون بالدُّون، والذلة، بل والذيلية لليهود والنصارىٰ؟!!.

إنه الحرص علىٰ الكراسي؛ ليكون المال العام في أيديهم، وحالئذٍ فإنهم أكثر الناس استمتاعًا به، من حيث توفير أجود الأعلاف، وأجمل المواطئ؛ بل إن الذين يريدون الحياة الدنيا، ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، سيكونون علىٰ استعدادٍ أن يُفَرِّطوا في العِرْض؛ لنيلِ شيءٍ من العَرَض الذي يتحكم فيه أولئك الفسقة الفجرة، وما قصص الملاهي والمراقص والمواخير والسهرات والبارات لأكثر الزعماء عنكم ببعيد.

إن الصوم المقبول هو صوم الجوارح كُلِّها عن محارم الله؛ فإن المفطراتِ مباحات أصلية، حُرِّمَتْ عليكم مؤقتًا في أيام معدودات؛ نظراً لأن الإنسان خُلق

إزاءها ضعيفـًا، فإذا انتصر علىٰ نفسه الأمَّارة بالسوء في معركة هاتين الشهوتين كان أجدر بالانتصار عليها في حقِّ المحارم الأخرىٰ، وإذا كان السمَّاعون للكذب كالأكالين للسحت، وكان المغتابون للناس كمن يأكل لحم أخيه ميتـًا، وكانت النظرة سهمـًا مسمومـًا من سهام إبليس؛ لأن النظر بريد الزنىٰ، فما بالكم حين تكون المنكرات تجارةً بالشعوب، ومقامرةً بالأوطان، وولاءً لليهود والنصارىٰ، فأيُّ قيمة من بعدها للصيام، حتىٰ لو صام أزلامها، وصَلىٰ أقزامها، وزعموا أنهم مسلمون؟!!.

والعياذ بالله من سخطه وعقابه في الدنيا والآخرة

الإدمان على تدبر القرآن يُلِينُ القلوب القاسية لأهل الإيمان

﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

إن رمضان هو شهر القرآن، والقرآن كتاب أنزله الله مبارك؛ ليدبروا آياته، وليتذكر أولو؛ الألباب، وإننا نلاحظ أن معظم الهاجرين له يعودون إلىٰ تلاوته في رمضان، ويتبارىٰ بعضهم في عدد المرات التي تمكن أن يُتِمَّها في هذه الأيام المعدودات، وقليلٌ هم الذين يتأثرون به، بحيث إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانـًا، وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلىٰ الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع؛ مما عرفوا من الحق، أو كانوا إذا يُتْلىٰ عليهم يَخِرُّونَ للأذقان سُجَّداً، ويَخِرُّونَ للأذقان يبكون، ويزيدهم خشوعـًا، أو إذا تتلىٰ عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سجداً وبُكِيّـًا، فإن لم يبكوا من القرآن فالواجب أن يتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنـًا علىٰ أنفسهم، فقد توعد الجبار جل جلاله بالويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خَرُّوا عليها صُمَّـًا وعميانـًا.

إن من مقاصد إنزال القرآن تليين القلوب القاسية، حتىٰ نكون من المؤمنين الذين ازدادوا إيمانـًا وهم يستبشرون، ولا نكون من المنافقين الذين زادهم رجسـًا إلىٰ رجسهم، وماتوا وهم كافرون، ولا من اليهود الذين أقسم الباري جلَّ جلاله علىٰ أنه ليزيدن كثيراً منهم ما أُنْزِلَ إلىٰ الرسول من ربه طغيانـًا وكفراً، وأنهم إذا ذُكِرَ الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأنك إذا ذكرتَ ربَّك في

القرآن وحده وَلَّوا علىٰ أدبارهم نفوراً، فمالهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حُمُرٌ مستنفِرة، فَرَّتْ من قَسْورة؛ أيْ من الأسد الذي يطاردها!!.

أما هذه الآية من سورة الزمر فتخبر أن الله وحده هو الذي أنزل هذا الكتاب بالحق، وجعل له خمس صفات عظيمات؛ أُولاها أنه (أحسن الحديث)، والأحاديث هي الأخبار، ولا يماري أحدٌ في أن القرآن كالفُلْك المشحون من حيث أخبار الأمم السابقة التي كانت من أنباء الغيب التي لا يعلمها رسول الله هو ولا قومه، فقد كان رسولنا عليه الصلاة والسلام يتلو من قبله من كتابٍ، ولا يَخُطُّه بيمينه؛ إذاً لارتاب المبطلون.

وفي وصف القرآن بكونه أحسن الحديث إشارة إلىٰ أنه أفضل الأخبار؛ لما فيه من الإيمان والفرقان، والتشريع والآداب، وغيرها مما فيه نفع عظيم، ولم يُفَرِّطِ الله في الكتاب من شيءٍ، بل نَزَّله تِبيانـًا لكل شيءٍ، فقد أنزله مُفَصَّلاً من لدن حكيمٍ خبير.

وأما ثاني تلك الصفات فكونه (كتابـًا) للإشارة إلىٰ ضرورة حفظه بالكتابة، من أجل قراءته وتلاوته، وليبقىٰ حجةً علىٰ مَرِّ الزمان، إذْ تكفل الله تبارك وتعالىٰ بحفظه قراءة وكتابة؛ أن تَضِلَّ إحداهما، فتذكر إحداهما الأخرىٰ.

وأما ثالث الصفات فهي (التشابه)؛ أي التماثل لفظـًا ومعنىً، فالقرآن يشبه بعضه بعضـًا في الفصاحة والإعجاز، كما تشبه الآيات أخواتِها في قوة الحجة، ولجم الخصوم، وكونها هدىً وشفاءً، وغير ذلك من وجوه الشبه العديدة.

وأما الصفة الرابعة فهي المثاني؛ أي التكرار، إذْ معاني القرآن تتكرر كثيراً لترسيخها في نفوس المؤمنين، إذْ إن الحديث عن الله واليوم الآخر، وعن الجنة والنار، وفي الترغيب والترهيب، لا يُحصىٰ كثرة، ومع ذلك فإنه لا يَخْلَقُ علىٰ كثرة الرَّدِّ، ولا يُمَلُّ سماعه، وكلما رَدَّده المسلم تَفَتَّحَ له من المعاني ما لم يفطن له

من قبل، حتىٰ لو تكرر المشهد، فمع كل تكرار هناك الجديد من المعاني والعِبَر.

وأما آخر الصفات هنا، وهي الخامسة فكونه (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر الله)، وهذه الصفة هي مقصود هذا المقال أصالةً؛ فإن ما في القرآن من القوارع والوعيد تنقبض معه الجلود، كما تصيبها قشعريرة البرود في الشتاء، خاصة وأن الوعيد الشديد، ومقامع الحديد، قد تكون من نصيب أي واحدٍ من التالين للقرآن، فالعبرة بالخواتيم، وحتىٰ المبشرون بالجنة هم أكثر إشفاقاً من الساعة، وأشدُّ خوفاً من مقام الله، وهم غير آمنين من مَكْر الله؛ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

إن هناك آياتٍ تَنْزِلُ علىٰ القلوب كصاعقة عادٍ وثمود التي جعلت الأولين كأعجاز نخلٍ منقعر، وجعلت قبيلة ثمود كهشيم المُحْتَظِر، ومن ذلك قوله تعالىٰ:

﴿وَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ. سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ. لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ.. ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١].

وقوله تعالىٰ: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

إن مشاهد القيامة، وأهوال العذاب الأليم الشديد المقيم، كثيرة جداً في القرآن الكريم، وإنما ذكرتُ نموذجين صارخين منها؛ لبيان سِرِّ القشعريرة للجلود، والتقلب للقلوب عند تلاوتها، خاصة مِمَّنْ أشفق أن يكون من أهلها، فقد أقسم ربنا جل وعلا علىٰ أن ورود جهنم مضمون، وأن الإفلات منها مظنون؛ فإنه تعالىٰ لا يُنَجِّي منها إلا الذين اتقوا، ويَذَرَ الظالمين فيها جِثِيًّا، ينادون علىٰ خزنة النار أن ادعوا ربكم يخففْ عنا يوماً من العذاب، فلا يستجاب لهم، ثم

يدعون مالكًا خازن النار، فيقولون: لِيَقْضِ علينا ربُّك، فيجيبهم: إنكم ماكثون، ثم يدعون ربهم، فيقول: اخْسؤُوا فيها ولا تُكَلِّمُون.

وأما لينُ الجلود والقلوب فَسِرُّهُ أنهم يمرون بعد ذلك علىٰ آيات المغفرة والرحمة؛ فإن القرآن يجمع غالبًا بين الترغيب والترهيب؛ لنكون ممن يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، وممن يدعون ربهم خوفًا وطمعًا، فهم يرجون رحمته، ويخافون عذابه؛ إن عذاب ربك كان محذوراً، وإن رحمة الله قريب من المحسنين، فقد وسعت رحمته كل شيءٍ، كما وَسِعَ سبحانه كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، ومن ذلك ما جاء بعد آيات الوعيد في سورة الحج: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَهُدُوا إِلَىٰ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣-٢٤].

إن الحديث عن الجنة ونعيمها أكثر من أن يحصىٰ في أسطر معدودات، فالحُورُ العِينُ، والولدان المخلدون، وهم يطوفون بِصِحافٍ من ذهبٍ وأكوابٍ، وكذلك بالأباريق والقوارير من فِضَّةٍ قَدَّروها تقديراً، وكلما رُزِقَ أهل الجنة منها من رزق قالوا: هذا الذي رُزِقنا من قبل، وأُتُوا به متشابهًا، فإنها فاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ففيها من كل فاكهةٍ زوجان، وإن أصحاب الجنة اليوم في شُغُلٍ فاكهون، هم وأزواجهم في ظلالٍ علىٰ الأرائك متكئون، لا يرون فيها شمسًا ولا زَمهريراً، ولا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأُولىٰ، وقد كانت لهم جنات الفردوس نُزُلاً، خالدين فيها لا يبْغُون عنها حِولاً، ففيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون.

ما أحوجنا أن نعيش مع القرآن بهذه الروح، فنجده غضًا رغداً، كأنما أنزل علينا الآن، وكلما تجدد عَهْدُنا به في الوِرْدِ اليومي ازددنا تعلقًا به، ووجدناه نوراً نمشي به في الناس، وسبيلاً مستقيمًا، يرسم لنا صراط الذين أنعم الله عليهم

من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، ويكشف لنا صراط المغضوب عليهم كاليهود، وصراط الضالين كالنصارىٰ، وصراط الذين يبغونها عوجًا من المنافقين الموالين لليهود والنَّصارىٰ، حتىٰ لا نتبع سُبُلَهم، فَتَفَرَّقَ بنا عن سبيل ربنا المستقيم!!.

ليلة القدر تزفُّ البشرى بالبطشة الكبرى، وبشجرة الزقوم لكل مُعْتدٍ أثيم

﴿حم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١-٤]

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر الأواخر من رمضان كأنما يدخل في حالة الطوارئ، فيعتزل نساءه، ويعتكف في المسجد، فيحيي اللَّيل كلَّه، ولا يكتفي بنصفه أو ثلثه، ولا حتىٰ بثلثيه، فلم يكن له فراش بالليل، وما له لا يفعل وهو يلتمس بهذا أن يصيب ليلة القَدْر؟!، وما أدراك ما ليلة القدر؟!، ليلة القدر خير من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، إِذِ الباقيات الصالحات فيها من صلاة وذكر وطاعة يفوق أجرها ثواب العبادة في ثلاثٍ وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهذا فوق متوسط أعمار هذه الأمة؛ إذ القليل هم الذين يجاوزون السبعين فضلاً عن الثمانين، وإذ اختصرنا ما قبل البلوغ فل يبلغ عمر التكليف لأحدٍ هذه المدة إلا لمن شارف علىٰ المائة.

ويعود السرُّ في هذا إلىٰ أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أُرِي أعمار الأمم السابقة، فأشفق أن يسبقونا في درجات الفردوس،؛ نظراً لقصر أعمارنا، وقلة أعمالنا، كما أنه صلىٰ الله عليه وسلم بلغه أن رجلاً لبس السلاح، وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فأعطاه الله تبارك وتعالىٰ ليلةً يكون أجر العبادة فيها أعظم من ثواب ذلك المجاهد ألف شهر، وإذا كان رباط يوم في سبيل الله خيراً من صيام شهر وقيامه، فما بالكم عندما يكون ذلك اليوم كَرَّاً وفَرَّاً، بحيث يأتيه الموت من كل مكان؟!، وكيف يكون مقامه عند ربه لو قضىٰ في ذلك ثلاثين ألف ليلة؟!.

إن هذا يرجح القول بأن الألف شهر لمطلق التكثير، وإلَّا فإن ليلة القدر خير من آلاف الشهور؛ فقد جرت عادة العرب عند المبالغة أن يذكروا الألف رقماً قياسياً لمطلق التكثير لا للحصر، كما جاء في سورة البقرة ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ... ﴾ [٩٦]؛ إذ لو عُمِّرَ أكثر من ذلك اليهودي الأحرص علىٰ أية حياة فهل يأبىٰ، ويتمنىٰ الموت، وهم الذين لا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم؟!.

هذا وقد سميت بليلة القدر إما لشرفها علىٰ سائر الليالي، وإما لأن الملائكة تعرف فيها المقدر للعباد، ومقادير الأرزاق والآجال ونحوها، أو لأن الله قد ضَيَّقَ فيها علىٰ العباد حين أخفاها في العشر الأواخر، وإن كانت في الوتر منها أرجىٰ منها في الشفع، أو لأن نزول الملائكة من السماوات السبع فيها إلىٰ الأرض يجعل هذا الكوكب يضيق بمن عليه من الخلائق.

ولعل السرَّ في إخفائها وعدم تحديدها أن يجتهد العابدون الراكعون الساجدون في العشر كلَّها، كما أخفىٰ ساعة الإجابة يوم الجمعة لندعوه نهاراً طويلاً، وأخفىٰ اسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطىٰ، وإذا دعي به أجاب؛ لنبتهل إليه بأسمائه الحسنىٰ كلِّها، وقد أخفىٰ الآجال، وعِلْمَ الساعة، وجعل رضوانه في الطاعات، وسخطه في المعاصي؛ لنجتهد أَلَّا نموت إلا ونحن مسلمون.

إن ليلة القدر تتمتع بجملة من الفضائل هي التي رشَّحتها لاحتضان نزول القرآن جملة واحدة إلىٰ بيت العزة في السماء الدنيا، ثم ليبتدئ نزوله فيها بصدر سورة العلق، ففضلاً عن عظيم أجرها لمن أحياها إيماناً واحتساباً؛ فإن الملائكة تعرف وظائفها فيها إلىٰ ليلة القدر من العام القادم، فهي مستهل الحَوْل الملائكي، وهي التي تشهد تَنَزُّلْ الملائكة، ومعها الروح الأمين جبريل عليه السلام؛ للتأمين علىٰ دعائنا، ولتحقيق قدرِ الله في الأرض، فقد أرادها سلاماً حتىٰ مطلع الفجر، وقد أُنِيط تحقيق ذلك بالملائكة المُنَزَّلِين، بالإضافة إلا ما يَمُنُّ الله به علينا من نزول الرحمة والمغفرة والبركة، ولذلك كان الدعاء المفضَّل فيها ما روته عائشة

رضي الله عنها وقد سألت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: إنْ أنا أُرِيتُ ليلة لقدر ماذا أقول؟ فأجابها: «قولي: اللهم إنك عفوٌّ تحبُّ العفو؛ فاعفُ عني»؛ ذلك أن العفو والمغفرة طهارة وزكاة، يتأهل بها العبد لنيل الفوز المبين، والفلاح العظيم.

إن سورة الدخان يقسم المولىٰ تبارك وتعالىٰ فيها بالكتاب المبين أنه أنزل الفرقان علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيراً في هذه الليلة، وقد اختارها للشروع في تنزيل القرآن لما تتصف به من البركة، وأن الله عز وجل أراد بإنزاله أن ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، أن ينذرهم بأسـًا شديدا من لدنه، وأن يحذرهم نفسه، ثم ذكر من بركاتها أنه يَفْرُقُ فيها من اللوح المحفوظ كلَّ أمرٍ أُحْكِمَ حصوله في عامنا القابل، فيدفعه للملائكة المنوط بهم تحقيقه في الأرض، وقد أضاف المزيد من الفضائل في سورة القدر، فيما لا يزيد عن ثلاثين كلمة.

هذا وقد قارنت السورة أو قرنت بين قريش والفراعنة لوجود شبهٍ كبيرٍ بينهما، فأبو جهل قائد قريش في معركة بدر هو فرعون هذه الأمة، وقد قالت تلك القبيلة حين أُخِذتْ بالسنين ونقص الثمرات مقولة الفراعنة لما وقع عليهم نفس الرجز، بالإضافة إلىٰ الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم؛ إذ قالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ثم نكثوا عهدهم بعد ارتفاع تلك العقوبات المفصَّلات، فانتقمنا منهم، فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا، وكانوا عنها غافلين.

وأما قريش فقد دعا عليهم سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وقد ضَيَّقوا عليهم بالحصار قريبـًا من ثلاث سنين، دعا عليهم أن يعينه الله عليهم بسبع كسنين يوسف، فلما نزل بهم القحط، وأصابتهم المخمصة؛ فزعوا إلىٰ النبي عليه الصلاة والسام أن يدعو ربه برفع الجدب، واحتباس الغيث، فإذا تَغَيَّرَ الحال آمنوا، غير

أنهم عادوا سيرتهم الأولىٰ كفراً بالله، وفتنة للذين آمنوا، فأخذهم بالبطشة الكبرىٰ في بدرٍ الكبرىٰ، وهو ما سجلته سورة الدخان في قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله جل جلاله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ. يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الآيات: ١٢-١٦].

إنه كما أنذرتهم سورة الدخان بطشة الله فتماروا بالنذر، أنذرتهم بشجرة الزقوم التي يأكلون منها فيملؤون منها البطون، فتغلي فيها كَغَلْيِ الحميم، وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه، فإذا رفضوه صُبَّ فوق رؤوسهم، فيصهر به ما في بطونهم والجلود، وإذا شربوه شربوه شُرْبَ الهيم؛ أي الجمال التي مهما شربت لا تحس بالري، ولا يذهب ظمؤها، فإذا سُقُوا ماءً حميماً قَطَّعَ أمعاءهم، والعياذ بالله تعالىٰ.

لذلك فإن دُنُوَّ ليلة القدر يحمل معه هذه البشارات، وهي أن الذين يحاصروننا ويقاتلوننا لن يفلتوا من دَأْبِ آل فرعون والذين من قبلهم، أو الذي جاؤوا من بعدهم؛ كقريش؛ فإن البطشة الكبرىٰ لهم بالمرصاد، كما أن شجرة الزقوم في انتظار الضالين المكذبين، فلم يك ينفعهم هذا لما رأوا بأسنا في الدنيا، أو حين وُقِفوا علىٰ النار في الآخرة فقالوا: يا ليتنا نُرَدُّ، ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين، أو وُقِفوا علىٰ ربهم فقال لهم: أليس هذا بالحق؟ قالوا: بلىٰ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

ألوان العبادة في ليلة القدر
خير من جهاد السابقين ألف شهر

إذا كان قد ذهب من هذا الشهر أكثره، فقد بقي فيه أجلّه وأخيره، لقد بقي فيه العشر الأواخر التي هي زبدته وثمرته، وموضع الذؤابة منه.

ولقد كان رسولنا -صلىٰ الله عليه وسلم- يعظّم هذه العشر، ويجتهد فيها اجتهاداً حتىٰ لا يكاد يقدر عليه، كان يفعل ذلك وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، فما أحرانا نحن المذنبين المفرّطين أن نقتدي به، فنعرف لهذه الأيام فضلها، ونجتهد فيها، لعل الله أن يدركنا برحمته، ويسعفنا بنفحة من نفحاته، تكون سببًا لسعادتنا في عاجل أمرنا وآجله.

فما هو فضل العشر الأواخر من رمضان؟ وكيف يمكن إحياؤها؟ وهل يُفضل إعطاء الصدقات في العشر الأواخر من رمضان، أم أن قيام ليالي تلك الأيام بالصلاة والذكر هو المميز فقط؟ وما هو المطلوب من أئمة المساجد والمشرفين داخل المسجد، من أجل إنجاح قيام الليالي العشر؟

هذه الأسئلة وغيرها، أجاب عنها عضو رابطة علماء فلسطين، ورئيس دائرة الإفتاء سابقًا، الدكتور يونس الأسطل في حواره لموقع «بصائر»، فإلىٰ نصّ الحوار:

بصائر: بداية، ما هو فضل العشر الأواخر من رمضان؟

د. **الأسطل**: لا شك أن النبي-صلىٰ الله عليه وسلم- كان يخص العشر الأواخر بالطاعات التي لم يكن يجتهد بمثلها في بقية السنة، ومن أجل ذلك

فإنه كان يعتكف العشر الأواخر كلها، ففي الصحيحين من حديث عائشة: (كان رسول الله إذا دخلت العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله)، والمقصود بشد المئزر، الكناية عن التشمير للاجتهاد بالعبادة، فضلاً عن اعتزال النكاح، بحكم أن المعتكف في المسجد لا يجوز له مباشرة الأزواج. ومن هنا فإن كل أنواع الطاعة تصلح أن تكون مجالاً للعبادة في هذه العشر الأواخر، لكن عبادة الليل يستحب فيها الإكثار من صلاة القيام، ومن قراءة القرآن، لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤].

إن السر بالاهتمام بهذه العشر علىٰ هذا الوجه كونها تحتوي علىٰ ليلة القدر وهي خير ليالي السنة علىٰ الإطلاق، وأن يوم عرفة هو خير أيام السنة مطلقـًا، ومن المعلوم أن العبادة في هذه الليلة خير من ألف شهر، والألف شهر يساوي ٨٣ سنة وأربعة أشهر، وهذا رقم لا يكاد يصل إليه إلا عدد محدود من الناس في هذه الأمة، أي أن يعيش بعد البلوغ والتكليف ٨٣ سنة أو يزيد، وهو في طاعة الله فلا يكون له معصية أو فسوق.

بل إن بعض الروايات تشير إلىٰ أن سبب هبة الأمة لهذه الليلة، أن النبي – عليه الصلاة والسلام- علم أن رجل من بني إسرائيل قد لبس السلاح ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فنزلت الآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، أي خير من ألف شهر التي لبس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله، فيكون فضل هذه الليلة، أن ألوان العبادة فيها خير من جهاد السابقين ألف شهر.

ونحن نعلم أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، أي من أعظم العبادات أجرًا، وأن ذروة السنام تعني ذروة الأجر، هذا علىٰ القول بأن الألف شهر نص يراد به تحديد العدد، ولكن هناك قول آخر بأن ذكر الألف المطلق للتكثير، استناداً إلىٰ

أن القرآن الكريم استعمل رقم الألف للتذكير في قول الله تعالىٰ عن اليهود: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، والمقصود لو يعمر آلاف السنين، وعلىٰ هذا التأويل تكون ليلة القدر خيراً من آلاف الشهور، أي أن ثواب العبادة فيها ثواب خيالي.

وحتىٰ لو علىٰ الصعيد الأول، فإن من وفق بإحياء هذه الليلة بكاملها عبر اعتكاف العشر الأواخر يكون قد أضاف إلىٰ رصيده من الحسنات ما يزيد علىٰ رصيد عمره كاملاً، فإذا وفق لأن يصيب ليلة القدر في كل عام، قائماً وساجداً يحظىٰ بالآخرة ويرجو رحمة ربه، فإنه عندئذ سيكون أعظم البشر أجراً.

بصائر: كيف يمكن اغتنام العشر الأواخر من شهر رمضان؟ وما هي أهم الأعمال الواجب القيام بها في هذه الليالي الكريمة؟

د. **الأسطل**: ينبغي اغتنام فضل هذه الأيام الكريمة علىٰ قدر المستطاع واتباع سنة الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- بإحياء هذه الليالي بالعبادة والاعتكاف في المساجد لمن يستطيع، والدعاء وقراءة القرآن والطاعات وتحري ليلة القدر، واختتام فريضة الصيام بأداء زكاة الفطر. لننال أفضال هذه الأيام المباركة ولا نحرم أفضالها. وينبغي ألا نتكاسل عن العبادة في تلك الأيام وألا نؤجلها فإنها خير أيام العام، وإذا مضت فهي لا تعوض ولا يحرم أفضالها إلا محروم وينبغي ألا تمر بنا هذه الأيام ونحن في غفلة عن أفضالها الكريمة وألا نضيع الوقت وألا نفوت الفرص العظيمة فيما لا ينفع ولا يبقي.

بصائر: ما هي أبرز فضائل ليلة القدر؟

د. **الأسطل**: لعل من المناسب أن أشير إلىٰ جملة فضائلها التي ذكرت في سورة القدر، وفي صدر سورة الدخان كذلك، فقد ابتدأت سورة القدر في تأكيد إنزال القرآن بهذه الليلة، أي أن ليلة احتضنت نزول القرآن الذي به كل خير للأمة،

لا شك أنها أفضل الليالي إذ فيها كان ميلاد هذه الأمة، وكان وضع حجر الأساس لهذا الدين، وقد اعتاد الناس أن يحتفوا بمثل هذه الذكريات ما لا يحتفون به في غيرها.

وأما الفضيلة الثانية، فهي كونها خيراً من ألف شهر، وقد عرفنا ما دار حولها من تقولات.

وأما الفضيلة الثالثة – قوله تعالىٰ: ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ [القدر: ٤]، والمقصود بالروح هو جبريل -عليه السلام- وهو الذي كان ينزل بالقرآن علىٰ النبي -عليه الصلاة والسلام- فأراد الله أن يكرم هذه الأمة بما أكرم به نبيها، فجعل جبريل يتنزل عليها في ما لا يحصىٰ كثرة من الملائكة، ولعل السر في هذا هو أن يباهي الله بنا ملائكته، فقد قالوا عن البشر ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ.. ﴾ [البقرة: ٣٠]، فأراد الله أن يثبت لهم أنه يعلم ما لا يعلمون من خلال أولئك القائمين العاكفين الركع السجود، ومن حكمه أيضاً أن تشهد لنا يوم القيامة في قيامنا الليل، وأن تؤمن علىٰ دعائنا. فإن من أمنت علىٰ دعائه الملائكة كان حرياً أن يقبل، ومن وافق تأمينه منا تأمين الملائكة له، غفر له ما تقدم من ذنبه.

وأما الحكمة الأخيرة في سورة القدر ففي قوله تعالىٰ: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥]، والمعنىٰ أن الله عز وجل لا يُقدر في هذه الليلة إلا السلام والخير، وأما مقاديرنا التي تأخذ من اللوح المحفوظ وتدفع إلىٰ الملائكة الموكلة بتطبيقها خلال السنة، نرجو أن تكون كلها سلاماً علينا، وقد قال عن هذه الليلة المباركة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، أي أن كل أمر أحكم وقوعه وقدر حصوله، يفرط من اللوح المحفوظ ويدفع إلىٰ الملائكة الموكلة بإيقاع الكون.

بصائر: ما السر وراء تسمية ليلة القدر بهذا الاسم؟

د. **الأسطل**: ربما كان من المناسب أن أشير إلىٰ أن ليلة القدر قد سميت بهذا الاسم لأحد أسبابٍ ثلاثة: إما لأن القدر هو الشرف، وهذه الليلة هي أشرف الليالي، وإما لأن القدر هو المشيئة الإلهية، أي ما كتب في اللوح المحفوظ من المقادير، وقد خلق الله لنا كل شيء بقدر كما وأن كل شيء عنده بمقدار، أما السبب الثالث، بمعنىٰ الضيق لأن الأرض تضيق بمن عليها في هذه الليلة لكثرة من ينزل عليها من الملائكة، أو لأن الله حين أخفاها في العشر الأواخر وفي الوتر منها، كان قد ضيق علىٰ العباد بعض الشيء ليجتهدوا في كل تلك الليالي حتىٰ يجزموا بإصابتها، ولها مظاهر كثيرة، كإخفاء ساعة الاستجابة يوم الجمعة لندعوه طيلة النهار، وإخفاء اسمه الأعظم لندعوه بكل أسمائه الحسنىٰ وما شاكل ذلك.

بصائر: هل يُفضل إعطاء الصدقات في العشر الأواخر من رمضان، أم أن قيام ليالي تلك الأيام بالصلاة والذكر هو المميز فقط؟

د. **الأسطل**: لا شك أن الصدقة في رمضان كله أعظم أجراً منها في بقية السنة، وأما إخراج الصدقة في العشر الأواخر بنية إصابة ليلة القدر تكون أعظم أجراً منها في العشرين الأولىٰ من رمضان، ولهذا فإن ثواب العبادة يرتبط بفرض الوقت أكثر من ارتباطه بالزمان، بمعنىٰ عندما يكثر الفقراء والمساكين، تكون عبادة الصدقة أفضل من نافلة الصلاة، وعندما تُداهَم أرضُنا كما حصل في عدوان الصهاينة، والحلف العربي، ومن ورائهم في شهر رمضان الماضي، يكون بعض صمود الشعب واحتضان المقاومة أكثر أجراً من سائر العبادات، كما أن البخيل مثلاً صدقته أفضل من نافلة صيامه وقيامه، بينما الكريم المعطاء تكون عبادته الأخيرة أعظم أجراً، والسر في هذا أن العبادة كلما كانت ثقيلة علىٰ النفس كانت ثقيلة في الميزان، أي أن ثوابها أعظم، ولهذا لما كانت الشهوات المحرمة خفيفة علىٰ النفس، كانت سبباً في خفة الموازين والله أعلم.

بصائر: كيف يمكن للمرأة أن تحيي العشر الأواخر من رمضان؟

د. **الأسطل**: هنا يجب أن نفرق بين المرأة المتزوجة التي يحتاجها بيتها علىٰ مدار الساعة كوجود أطفال رضع أو صغار، فتكون طاعتها في بيتها أشبه بثواب الرباط؛ لأنها قائمة علىٰ تربية الجيل الذي يرث العبادة والدعوة والجهاد من بعدنا بخلاف المرأة التي تقدم بها السن أو لم ترزق الولد أو لم تتزوج أصلاً للصغر أو العنوسة، وهذه بإمكانها أن تلتحق بقيام الليل في المساجد والجمعيات التي تحيي الليل، بشرط الاحتشام وأمن الفتنة؛ لأن المساجد ليست وقفًا علىٰ الرجال. وينبغي أن يكون للمرأة نصيب فيها، لحاجتها إلىٰ تجديد إيمانها وطاعة ربهـا، وللازدياد من العلم والتقوىٰ، ويمكن لبعض الأخوات اللاتي يسكنَ في عمارة واحدة، أو في بيوت متجاورة أن يجتمعن في بيت متسع لإحداهن بحيث إذا احتاجت الرجوع إلىٰ بيتها تستطيع الوصول بسرعة لكي تقوم بتنويم أولادها مثلاً، إذا بُلغت باستيقاظهم، فيمكنها أن تصل بشكل يسير.

بصائر: ما هي رسالتك لأئمة المساجد والمشرفين التربويين داخل المسجد، من أجل إنجاح قيام الليالي العشر؟ -وبمعنىٰ آخر- ما هو المطلوب منهم توفيره لجذب الشباب علىٰ استغلال هذه الأيام؟

د. **الأسطل**: إنه من الواجب أن يقيموا كل المحفزات المقدور عليها بالمساجد، وأماكن قيام الليل بدءاً بالدعوة والموعظة الحسنة والمحفزات المعنوية كالوعظ والإرشاد، مروراً بتوفير أئمة ذوي أصواتٍ ندية، وليس انتهاءً بتوفير ضيافة كالماء البارد وبعض المشروبات الساخنة مثلاً.

بصائر: ما هي نصيحتك للشباب لما بعد رمضان؟ -لأن هناك بعض الشباب يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثًا-؟

د. **الأسطل**: ينبغي أن نحافظ علىٰ ثمار رمضان، وذلك بالآتي:

أولاً- التمسك بنافلة الصيام وأهمها الستة أيام من شوال وثلاثة أيام من كل شهر.

ثانيـًا- نافلة القيام وأقلها صلاة ركعتين بعد صلاة سنة العشاء وقبل الوتر، وأضعف الإيمان الحرص علىٰ شهود صلاة العشاء في جماعة وكذا الفجر.

ثالثـًا- الاستمرار علىٰ برنامج التلاوة والتدبر، ولو بالحد الأدنىٰ، كجزء من القرآن، باليوم ولو كان أقل من ذلك. المهم هو المداولة فإن أحب الأعمال عند الله أدومها وإن قل، وبعد ذلك الاستمرار بالصدقة بما توفر، بحيث لا يمر أسبوع إلا يتصدق بشيء من وسعه.

رابعـًا- الحرص علىٰ أذكار الصباح والمساء والأحوال المختلفة.

خامسـًا- الانتباه إلىٰ أن رمضان دورة تجريبية لما بعدها من الواجبات، وقد نصت سورة البقرة علىٰ القتال في سبيل الله، بعد آيات الصيام، بسبب أن الصوم دورة جهادية نقود فيها المعركة مع أنفسنا والشيطان والدنيا، فإذا انتصرنا بالصيام، كنا قد غيرنا ما بأنفسنا وعندئذ فإننا قادرون علىٰ تغيير الواقع؛ لأن الله لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم، ووجوه الشبه بين الصيام والجهاد كثيرة، والمفروض أن يستمر الصوم، ولكن عن المحرمات المؤبدة، كأكل أموال الناس بالباطل والإدلاء بها الىٰ الحكام ليأكلوا طريقـًا من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون، والله أعلم.

ليلة القدر تضع حجر الأساس لِبُنْيان الدين، وتحتضن ميلاد أمة خير المرسلين

﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ١-٤]

ثبت أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يَخُصُّ العشر الأواخر من رمضان بنشاطٍ تعبدي زائدٍ علىٰ همته في سائر رمضان، فضلاً عن الشهور الأخرىٰ، فقد كان إذا دخل العشر شَدَّ المئزر، فأحيا ليله، وأيقظ أهله، وكان يعتكفها جميعًا في المسجد، فلا يخرج منه إلا إلىٰ مصلاه صُبْحُ العيد، باستثناء الخروج اليسير لتجديد الوضوء، أو جلب الطعام، ونحو ذلك، فلا يزور مريضًا، ولا يتبع جنازة.

وإذا كان المشركون يعبدون أصنامًا، فيظلون لها عاكفين، كما قال بنو إسرائيل في حقِّ العجل الذهبي الذي ابتدعه السامري: لن نبرح عليه عاكفين حتىٰ يرجع إلينا موسىٰ، وهم الذين مَرُّوا بعد مجاوزة البحر علىٰ قومٍ يعكفون علىٰ أصنامٍ لهم، فتمنوا أن يكونوا مثلهم...

إذا كان الكفرة يتقربون إلىٰ أوثانهم بالاعتكاف فنحن أحقُّ بالاعتكاف لبارئنا الحق، ولو أيامًا معدوداتٍ، نجعلها لربنا، ونرصدها لآخرتنا.

وقد وقع الاختيار علىٰ العشر الأواخر؛ لأنها ظرف ليلة القدر، تلك الليلة التي بلغ من بركتها، ومن فضل الله علينا فيها أن كانت خيراً من ألف شهرٍ ليس فيها ليلة القدر، بمعنىٰ أن ثواب العبادة يعدل ثواب ثلاثٍ وثمانين سنة وأربعة أشهر، بل يتفوق عليها، هذا إذا كانت الأَلْفُ نَصًّا لا مزيد عليه، أما لو أخذنا بالتأويل القائل: إن هذا علىٰ سبيل المبالغة حسب عادة العرب في الجاهلية؛ فإن

الأَلْفَ عندهم لمطلق التكثير، فيكون المعنىٰ: إن ليلة القدر خير في أجرها وثوابها من آلاف الشهور، وقد كان اليهود – ولا يزالون – يَوَدُّ أحدهم لو يُعَمَّرُ ألف سنة؛ أيْ آلاف السنين، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعَمَّر.

إن السرَّ في هبة هذه الليلة لهذه الأمة خالصةً لها من دون السابقين هو قِصَرُ أعمارنا، وقلة أعمالنا، بالقياس إلىٰ الأمم الغابرة، فلما أشفق نبيُّنا عليه الصلاة والسلام أن يسبقونا بالأجور والدرجات العلا، خاصة وأن بعض رجالهم كان يلبس السلاح ألف شهر جهاداً في سبيل الله، أُعْطِيَ ليلةً، وجعل ربنا الكريم ثواب العبادة فيها خيراً من جهاد الذي سبقونا بالإيمان ألف شهر، وهو يعني أن ذلك الثواب في ليلةٍ واحدة يتفوق علىٰ ثواب الطاعات في عُمُر المؤمن كله، فمن ذا الذي يقضي ثلاثة وثمانين عاماً وأربعة أشهر بعد البلوغ في العبادة التي لا تشوبها معصية، ولا يلحق به فيها شيء من الحبوط في العمل؟!!.

وكان من بركاتها أن تتنزل الملائكة وجبريل فيها؛ لتجعل كل أمرٍ سلاماً بإذن ربها، ولِتُؤَمِّنَ علىٰ دعاء المؤمنين، فيكون مقبولاً، ولتدلي بشهادتها لنا يوم القيامة عن بَيِّنة.

ولا يفوتنا أن نُذَكِّرَ بما يتنزل فيها من المغفرة والرحمة والبركة، فإن من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه، وأفضل دعاء فيها ما جاء من رواية عائشة رضي الله عنها؛ إذْ سألت ما تقول إذا أيقنت بليلة القدر؟، فكان الجواب: «قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني».

وقد أضافت سورة الدخان أنها بداية السنة الوظيفية للملائكة؛ إذْ يُفْرَقُ من اللوح المحفوظ الأقدار التي أَحْكَمَ البارئ جل جلاله وقوعها في العام التالي، وتُدفع إلىٰ الملائكة الموكَّلين بإحداثها في حياتنا، وفي الكون من حولنا، سواء تعلقت بالأرزاق والأمطار، أو بالحروب والصراعات، أو بالحياة والموت، أو غير ذلك.

ولعل جملة هذه البركات هي التي رشحت تلك الليلة لتحتضن نزول القرآن المبارك هدىً للناس، وبينات من الهدىٰ والفرقان، وليكون للعالمين نذيراً، وللمؤمنين شرعة ومنهاجًا، فقد أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً، وجعله تبيانًا لكل شيءٍ وهدىً ورحمة وبشرىٰ للمسلمين، فقد شهدت وضع حجر الأساس لهذا الدين، وفيها كان ميلاد خير أمةٍ أخرجت للناس.

وقد يشتاق بعضنا لمعرفة سرِّ تسميتها بليلة القدر، ولذلك أسباب، منها أن القدر هو الشرف والمكانة، ولا شك أنها أفضل ليلة في السنة علىٰ الإطلاق، ومن ذلك أنها ليلة الأقدار، ففيها تعرف مقادير العام القادم حين تفصل من اللوح المحفوظ، وتدفع للملائكة.

ولعل أغرب الأسباب أن تكون مشتقة من القدر بمعنىٰ الضيق، فإن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وتندفع الغرابة حين نعلم أن السماء تجود بعدد منهمر من الملائكة، حتىٰ تضيق الأرض بهم لكثرتهم وتزاحمهم؛ ليروا الرُّكَّع السُّجود من بني آدم، وقد قالوا في حقهم يومَ لم نكن شيئًا مذكوراً: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكن الله جل وعلا يباهي بنا الملائكة في هذه الليلة.

وربما رجع التضييق إلىٰ إخفائها في العشر الأواخر، أو في الوتر منها، مما يضطرنا إلىٰ الاجتهاد فيها جميعًا؛ لنضمن إدراكها بفضل الله ورحمته، وقد كان شأنها في الإخفاء كاسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطىٰ، وكساعة الإجابة يوم الجمعة، وإخفاء الآجال، وعلم الساعة، وقبول الأعمال، وغير ذلك.

وإذا سأل سائل عن علامات ليلة القدر؟؛ فإن أعظم تلك العلامات أن تصبح الشمس صبيحتها بيضاء لا شعاع لها، ولعل السر في ذلك هو صعود الملائكة في تلك الساعة بما يجعل نور الملائكة يعاكس نور الشمس، فلا تصل إلينا خيوطها المعتادة.

وقد قيل: إن السماء ليلتها تكون صافية كأن بها قمراً منيراً، وأن مصابيح السماء تتوقف عن رجم الشياطين، ولا عجب في ذلك؛ فإن إبليس وجنوده لا يصمدون لرؤية الملائكة، فضلاً عن أن يَصَّعَّدوا في السماء.

ويستحبُّ لمن رأىٰ أمارة ليلة القدر أن يكتمها؛ خشية الرياء، أو رؤية النفس، فتكون العاقبة أن يحرم رؤيَتها مستقبلاً، أو تحسباً من الاتكال والاسترخاء اتكالاً علىٰ الكرامة، أو توجساً من الحسد؛ استئناساً بقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

سورتا القدر والدخان تشيدان بليلة القدر وتشيران إلى بركة القرآن

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]

يتأهب عشرات الملايين من الأمة لإحياء ليلة السابع والعشرين من رمضان؛ اعتقاداً منهم أنها ليلة القدر، والصحيح أنها في الوتر من العشر الأواخر، وكونها في السبع الأخيرة أرجح من تبكيرها في ليلة الحادي والعشرين، كما أن المرجح أنها متنقلة بين الأوتار، غير أنه لا يملك أحدٌ أن يجزم بإدراكها إلا إذا أحيا العشر كلَّها؛ فقد يقع خطأٌ في رؤية الهلال، فتكون الليالي الشفع هي الوترَ في الواقع، ومن هنا فقد حرص نبيُّنا علىٰ اعتكافها، ولم يكن له فراشٌ بالليل، حتىٰ لا تضيع دقيقة في غير طاعة.

ومن المعلوم أن حديث القرآن عن ليلة القدر قد جاء صريحًا في موضعين، الأول منهما في صدر سورة الدخان، والثاني هنا في سورة القَدْر، والظاهر أن سورة الدخان قد نزلت أولاً؛ لأن الحديث فيها جاء مجملاً عن فضائل هذه الليلة، بينما تكفلتْ سورة القدر بشيءٍ من التفصيل.

فقد بدأت الأولىٰ بعد الحروف المقطعة (حم) بالقَسَم بالقرآن بوصفه الكتابَ المبين، فقد نزل تِبْيانًا لكل شيءٍ، كما نزل مُفَصَّلاً، أو تفصيلاً لكل شيءٍ نحتاجه في رسالة العبودية، ووظيفة الخلافة، أو إعمار الأرض، وإصلاحها، وعدم اتباع سبيل المفسدين.

وكان القَسَمُ بالقرآن علىٰ أن الله جل وعلا قد أنزله في ليلةٍ مباركة، ولم يحدد هناك ما هي الليلة المقصودة، ولا ما هي بركتها، ثم جاء هنا فأكَّد نزول القرآن في ليلة القدر، فَعَيَّنَ بذلك المقصود بالليلة دون الحاجة إلىٰ القسم؛ لأن الظاهر أنها سورةٌ مدنية، فيكون المخاطبون بها هم المؤمنين، فلا يحتاجون إلىٰ اليمين، ومما يرجح ذلك أن وجوه البركة هنا تجيء في سياق الإغراء بإحيائها، والمؤمنون هم الذين ينتفعون بمثل هذا التحريض، لا سيما وأن سورة القدر قد جاءت بعد سورة العلق، تلك التي انتهتْ بقوله سبحانه: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [١٩]، فصار المعنىٰ: أَكْثِرْ من السجود في ليلة القدر؛ لتفوز بالقرب والزلفىٰ من الله أولاً، ثم من منزلة نبِّينا محمد صلىٰ الله عليه وسلم في الجنة ثانيًا.

ولعل المناسبة بين سورتي العلق والقدر هي أن الأولىٰ قد تضمنت الآيات الخمس التي نزلت علىٰ محمدٍ صلىٰ الله عليه وسلم تخبره بالنبوة، وتأمره بالقراءة باسم الله، ومع الله الأكرم الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، أما الثانية فقد أكدت أن الظرف الذي تنزلت فيه تلك الآيات هو ليلة القدر، وقد أراد ربنا تبارك وتعالىٰ أن يَشُدَّ انتباهنا إلىٰ عظيم قدر القرآن المبارك، حين اختار له الليلة المباركة لتشهد بداية النزول، وحجر الأساس، وميلاد خير أمة أُخرجت للناس.

أما بركة هذه الليلة فهي شيءٌ عظيم، قد دَلَّنا علىٰ عُلُوِّ قدرها التساؤل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؟؛ إذِ الظاهر أن بركتها فوق الإدراك، لكنْ قد جَرَتْ عادة القرآن إذا عبَّر بالفعل الماضي في نفي الإدراك أن يكشف عن طَرَفٍ من نبأ تلك القضايا الضخمة، بينما حين يُعَبِّرُ بالمضارع يستأثر بعلمها؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورىٰ ١٧]، فإن علم الساعة من مفاتح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا هو، ولا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو.

أما ما كشفه هنا من أسرارها الغيبية، وهو إحدىٰ بركاتها الكبرىٰ، فهو ما جاء في قوله سبحانه: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، والمقصود أن ثواب العبادة

فيها خير من ثواب الطاعة في ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، وهل الأَلْفُ هنا نصٌّ عددي مقصود، أم هي للمبالغة ومطلق المضاعفة، والمقصود أنها خيرٌ من آلاف الشهور؟ قيل بهذا، وقيل بذاك، وقد استدل للرأي الثاني بقوله تعالىٰ عن اليهود: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ.. ﴾ [البقرة: ٩٦]، فهل لو عُرِضَ علىٰ اليهودي أن يعمر ألفين أو ثلاثـًا سيرفض؟!.

ولو اقتصرنا علىٰ التأويل الأول؛ فإن ثواب الطاعة في ليلة القدر شيءٌ خيالي؛ فمن ذا الذي يطيع ربَّه، فلا يعصيه بعد البلوغ مدة ثلاثة وثمانين عامـًا وأربعة أشهر، إلا إذا ناهز المائة دون أن يُرَدَّ إلىٰ أرذل العمر، فلا يعلم من بعد علمٍ شيئا؟!!.

وقد ندهش إذا علمنا أن المقارنة هنا بين ثواب العبادة فيها وثواب الجهاد في غيرها؛ فكيف إذا كان الإحياء لها رباطـًا ومقاومة، فإن رباط يوم في سبيل الله خير من عبادة سنةٍ في الأيام العادية، فإذا وافق ذلك ليلة القدر كان خيراً من ثلاثين ألف سنة، فقد جاء في الحديث أن رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح ألف شهر، فنظر النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ أمته، فتقاصر أعمارها، وتقالَّ أعمالها، فأعطاه الله جل وعلا ليلة القدر، وجعل العبادة فيها خيراً من جهاد السابقين ألف شهر.

ولعل السِّرَّ في تكرار ليلة القدر ثلاث مراتٍ في سورة قصيرة هو الإشادة بها، وشَدُّ الانتباه إليها، وقد جرت العادة أن يكتفي بالإضمار بعد الإظهار للإيجاز والاختصار، بينما ذهب بعض العلماء إلىٰ الاستئناس بهذا التكرار في الجزم بأن ليلة السابع والعشرين هي ليلة القدر؛ بسبب أنها مكونة من تسعة حروف، فإذا ضُرِبَتْ في عدد تكرارها ثلاثـًا كانت سبعـًا وعشرين، كما استأنس بعضهم بكونها كذلك حين وجد سورة القدر ثلاثين كلمة، وقد جاء الضمير (هي) في الآية الأخيرة منها، وكان ترتيبها السابع والعشرين، ولله في كتابه أسرار لا تحصىٰ كثرة.

ثم أخبر أن من بركاتها أن تتنزل الملائكة إلىٰ الأرض والروح فيها؛ أيْ بمعية

جبريل، ولا غرابة في ذلك، فقد تَنَزَّلَ فيها جبريل أول مرةٍ بصدر سورة العلق علىٰ رسولنا عليه الصلاة والسلام، فلا يزال يتنزل علىٰ المؤمنين، وقد دلَّ علىٰ الاستمرارية التعبير بالفعل المضارع، ولما كانت الملائكة لا تتنزل إلا بأمر ربك، فقد أخبر هنا أن نزولهم وصعودهم مراتٍ عديدةً في هذه الليلة قد جاء بإذن ربهم، كما جاء لتحقيق أمور لا تحصىٰ كثرة، وهي المعبَّر عنها بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، سواء أريد بها الأوامر والتكاليف، أو الأمور والمقادير، فقد تضمنت سورة الدخان النوعين في قوله تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [الآيتان: ٤-٥]، إذِ الظاهر أن الأول هو القَدَري، والثاني هو الشرعي.

ومعنىٰ ذلك أن ليلة القدر تشهد اطِّلاع الملائكة علىٰ أقدار العام المقبل كاملاً؛ إذْ تفصل تلك المقادير من اللوح المحفوظ، ويدفع إلىٰ كل ملكٍ ما هو موكَّلٌ به من الأحداث التي كَتَبَ الله وقوعها في ذلك العام.

وإن مما جرىٰ فصله من القرآن المجيد، الذي هو في لوحٍ محفوظ، تلك الآيات من سورة العلق التي فتحت الباب لنزول القرآن مُنَجَّماً في ثلاث وعشرين سنة.

وأما الآية الأخيرة: ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ فمعناها أن الله عز وجل لا يُقَدِّرُ في هذه الليلة إلا السلام والخير، فلا يكتب الشرور والآفات، أو أن الملائكة لا تتنزل فيها إلا بالخيرات والبركات، بينما تتنزل في غيرها بالهلاك والآفات، كما في قوله تعالىٰ من سورة الحجر: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ [الآية: ٨]، أي فلا يُمهلون إذا جاءتهم الملائكة بصاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود.

وقد أفاد قوله: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ) أن بركة تلك الليلة لا تقتصر علىٰ بعض ساعاتها، بل تمتدُّ من الغروب إلىٰ أذان الفجر عندما يتنفس الصبح.

لذلك فإنني أنصح لنفسي ولإخوتي المؤمنين أن نستثمر العشر الأواخر، ونزداد من الطاعات والصدقات فيما بقي منها، وأن نستعدَّ لذلك بقيلولة النهار، مع النهوض للصلاة الوسطىٰ، وعدم إرهاق الجسد بالنهار، مع التقليل من الطعام عند الإفطار، وترك المعاصي والآثام، والحرص علىٰ القيام الجماعي، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وذئابُنا هي شياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غروراً.

بشرى النصر في هذا العصر من بركات ليلة القدر

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ. يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٥-١٦]

يشدُّ الانتباه أن سورة الدخان قد ربطت بين فضائل ليلة القدر وأخذ قريش بالبطشة الكبرىٰ في بَدْر، ثم عَرَّجتْ علىٰ نبأ موسىٰ وفرعون بالحقِّ لقومٍ يؤمنون، والسرُّ في ذلك أن قريشًا قد أُخِذتْ بنفس السُّنَّةِ الربانية التي أخذ الله بها فرعون وجنوده، فنبذهم في اليمِّ وهو مُليم، فهو كدأْبِ آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم، فأهلكهم بذنوبهم، وأغرق آل فرعون، وكُلٌّ كانوا ظالمين، فما بكتْ عليهم السماء والأرض؛ بل أُتْبِعوا في هذه الدنيا لعنةً، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

وقد تساءلتِ السورة عمَّا إذا كانت قريش خيراً من قوم تُبَّعٍ والذين من قبلهم، فقد أهلكهم الله؛ إنهم كانوا قومًا مجرمين!!.

إن صدر السورة قد بدأ بالقَسَم بالكتاب المبين أن الله قد أنزله في ليلة مباركة، هي ليلة القدر، وقد فُصِّلتْ بعض بركاتها في سورة القدر –علىٰ قِصَرها–؛ فإذا هي خيرٌ من ألف شهر؛ بمعنىٰ أن ثواب العبادة والطاعة فيها أعظم من القُربات في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، وهو يعني أن ثواب الخشوع لله، مع الدعاء رَغَبًا ورَهَبًا، أعظم مما يُحَصِّلُه المسلم في عُمُره كلِّه، فمن ذا الذي يُعَمِّرُ بعد البلوغ ثلاثًا وثمانين سنة، وأربعة أشهر، ويكون قد أمضاها في طاعة الله، فلم يَعْصِهِ أبداً؟!، وإذا كانت أعمار معظم هذه الأمة تنقضي دون السبعين، وأن

التكليف يبدأ في الخامسةَ عشرةَ، أوِ انْقُصْ منه قليلاً؛ فإن الطاعة لم تَزِدْ لأكثرهم عن خمسين سنة، مع ما فيها من الفسوق والعصيان؛ فأنىٰ لهم أن يحصلوا علىٰ شطر ما يناله فيها القائمون والعاكفون والرُّكَّعُ السُّجود؟!، كيف وإن ليلة القدر خيرٌ من ألف شهرٍ، أو من آلاف الشهور، علىٰ القول بأن الألف لمطلق التكثير لا للتحديد؛ جريـًا علىٰ عادة العرب في اعتباره رقمـًا قياسيـًا للمبالغة؟!، وكيف إذا كان تأويل الآية أن الطاعة فيها خيرٌ من جهاد إخواننا الذين سبقونا بالإيمان ألف شهر؛ بحسب ما ذُكِرَ في سبب هبة هذه الليلة لأمتنا دون الذين خَلَوْا من قبل؟!.

وبالرجوع إلىٰ آية المقال نجدها تشير إلىٰ رفع القَحْط عن قريش مؤقتـًا بفضل دعاء النبي صلىٰ الله عليه وسلم لهم، وقصة ذلك أنهم لما حاصروا النبيَّ ومن معه من المؤمنين ثلاث سنين في شِعْبِ أبي طالب، حتىٰ أكلوا ورق الشجر من المخمصة؛ دعا ربَّه أن يعينه عليهم بسبع كَسِنيِّ يوسف، فَأُخِذوا بالسنين ونقص الثمرات، كما أخذ بها الفراعنة الأولون، وقد حاكىٰ أهل مكة الفراعنة في فزعهم لسيدنا موسىٰ عليه السلام، فقالوا: ادْعُ لنا ربَّك بما عهد عندك؛ لئن كشفتَ عنا الرِّجْزَ لنؤمننَّ لك، ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل، فلما كشف عنهم الرجز إلىٰ أجلٍ هم بَالِغُوهُ؛ إذا هم ينكثون، فانتقم ربُّنا منهم، فأغرقهم في اليمِّ؛ بأنهم كذبوا بآياته، وكانوا عنها غافلين، كما أنهم أخلفوا موسىٰ ما وعدوه من الإيمان، ورفع الرِّقِّ عن بني إسرائيل، وهكذا قريش؛ فقد تَعَهَّدتْ بالإيمان حين يرتفع القحط، وتجود السماء بالماء، فاستجاب له ربُّه، فصرف عنهم الجذب، وقال: إنا كاشفو العذاب قليلاً؛ إنكم عائدون إلىٰ الكفر والصدِّ عن سبيل الله، وعليهم أن ينتظروا البطشة الكبرىٰ من الله المنتقم ذي البطش الشديد؛ وكأنهم لم يأتهم حديث الجنود فرعون وثمود الذين استحبُّوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهُونِ بما كانوا يكسبون، ولم يكن ذلك إلا سَوْطَ عذاب، فقد جعل ثمود كهشيم المحتظِر، فكيف لو صَبَّ عليهم ربكم سوطين أو ثلاثة؛ إذا لكانوا دُخَانـًا أو هباءً مُنْبَثًّا؟!.

لقد خرج الكفرة الفجرة من قريش من ديارهم بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، وما كانوا يظنون أنهم إلىٰ حتفهم يزحفون، فقد هُزِم الجمع، وَوَلَّوُا الدُّبر، وأَحَلُّوا قومهم دار البوار، وقد قُذِفَ قتلاهم السبعون من الملأ منهم في بئرٍ في بدرٍ، وناداهم نبيُّنا عليه الصلاة أنْ قد وجدتُ ما وعدني ربي حقـًا؛ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقـًا؟!، وقد أخبر أنهم قد سمعوا سؤاله، غير أنهم لا يستطيعون أن يَرُدُّوا بعد أن جَيَّفوا؛ أيْ صاروا جِيفـًا صَرْعىٰ كأعجاز نخلٍ خاوية.

وأما الأسرىٰ السبعون فكان حكمهم القتل؛ حتىٰ يحصل الإثخان المفضي إلىٰ وضع الحرب أوزارها، فلا تقوم لهم قائمة بعدها، وقد كان ما أصابنا يوم أحد أثراً لإيثارنا الفِداء، فقد أرادوا عَرَضَ الدنيا، والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم.

ما أحوجنا ونحن نُحْيِي العشر الأواخر؛ الْتماسـًا لليلة القدر، أن نتفاءل أن يجعل الله رباطنا هذا تدريبـًا علىٰ رباطنا في وجه الصهاينة، وهم فراعنة العصر بوصفهم شَرَّ الدواب عند الله هم وأحفاد قريش من العرب والفلسطينيين الذين يتربَّصون بنا الدوائر؛ لعل الله يأخذهم بالبطشة الكبرىٰ بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، فينصرنا ونحن أذلة من بعد ما أراكم ما تحبون في الفرقان، وحجارة السِّجِّيل، والعصف المأكول، ومن المأمول أن يكون قريبـًا، وما ذلك علىٰ الله بعزيز، وإنما أمره إذا أراد شيئـًا أن يقول له: كن فيكون!!.

أضعف الإيمان أن نستمسك بالحد الأدنى من وظائف رمضان

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ. وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧- ٨]

بعد الفراغ من رمضان في أيِّ الأعمال نَنْصب، وبأيها إلىٰ ربِّنا نرغب؟

إن الإجابة علىٰ هذا السؤال تتلخص في ضرورة المحافظة علىٰ وظائف رمضان فرضًا كما وجب، ونَفْلاً ولو في الحدِّ الأدنىٰ؛ إذا هبطت بأحدنا الهمة، فَزَهِدَ في المستحبات، وكان من المقتصدين.

لقد ثبت أن أكثرنا قادر علىٰ صيام شهرٍ كامل متتابع، فلا أقلَّ بعد ذلك من ثلاثة أيام من كل شهر؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، فذلك ثواب شهرٍ كامل، ومَنْ حافظ عليها جاء يوم القيامة كما لو أمضىٰ عمره كلَّه صائمًا، فكان شبيه الملائكة الذين لا يأكلون، ولا ينكحون؛ بل يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرُون، ويُسْتحبُّ أن يختار الأيام الثلاثة الوسطىٰ من الشهر التي يكتمل فيها البَدْر، فإذا فَرَّقها في الشهر فلا جُناحَ عليه، علىٰ أنه يستحب أن يخصَّ شهر شوال بستة أيام؛ حتىٰ ينال ثواب سنة كاملة؛ فإن صوم رمضان بعشرة أشهر، ويبقىٰ في السنة شهران، فإذا صام ستة أيام كانت عند الله بِسِتِّين، فذاك تمام السَّنة، ومَنْ داوم علىٰ ذلك جاء ربه بثواب صيام الدهر كله مادامت النية والعزم قائمًا علىٰ دوام الصيام حتىٰ لو امتدَّ به الأجل قرونًا عديدة.

إن هذه الستة بمثابة السُّنة البعدية في الصلاة، أو الصدقة بعد الزكاة، أو حج النافلة بعد المرة الأولىٰ، ولها مقاصد، منها أن تكون جابرة لما وقع من نقصٍ في الفريضة، بِغَضِّ النظر عن سبب ذلك النقص؛ فقد جاء في الحديث أن الله عز

وجل – إذا كان خللٌ في الواجبات – يقول لملائكته: «انْظُروا هلْ لِعبدي مِنْ تَطَوُّع؟.

إن أنواع صيام النافلة كثيرة، والمطلوب هو الأخذ بما تطيقه النفس منها دون بُغْضٍ أو ملل، لكنَّ أضعف الإيمان هو يوم في كل عشرة أيام، أيْ ثلاثة أيام في الشهر متفرقة أو مجتمعة.

ثم إن أكثر الصائمين كان حريصًا علىٰ قيام الليل بشهود صلاة التراويح، وقد ثبت احتمالنا لثماني ركعات علىٰ مدار الشهر، فإذا دخل العشر فإن الكثير من القائمين والعاكفين يُتِمُّونها إلىٰ عشرين بجزءٍ من القرآن غالبًا، وإن النشطاء منكم يقرؤون فيها ثلاثة أجزاء؛ حتىٰ يتموا القرآن جميعه في صلاة القيام.

إن مثل هذا النشاط لو كنتم قادرين علىٰ المُضِيِّ فيه طيلة العام لأصبحتم ملائكة يمشون علىٰ الأرض مطمئنين، ولكنَّ الله تعالىٰ خَفَّفَ عنكم، وعلم أن فيكم ضعفًا، ونحن نطالب بما تطيقه النفس إيمانًا واحتسابًا، ونرفض الهجر بالكلية، وأضعف الإيمان صلاة ركعتين بعد سنُة العشاء، وقبل الوتر، فإذا أَنِسْنا من أنفسنا همة، فتركناها إلىٰ ما بعد الهجوع، فوقعتْ في الثلث الأخير من الليل، أو حتىٰ قبل الفجر بدقائق معدودات؛ فهو أولىٰ؛ حتىٰ نكون من المستغفرين بالأسحار، ونحن نرجو أن يزداد إيماننا حتىٰ نَبيتَ لربِّنا سُجَّداً وقيامًا، ونكون ممن كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، عسىٰ أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا أن كُنَّا أفضل القائمين، وهم الذين بَهُدىٰ سيدنا داوود يقتدون، وعلىٰ آثاره يُهْرَعون.

إن قيام الليل أمثلُ صراطٍ لصناعة رجالٍ أُولي بأسٍ شديد، يحملون ما ألقاه الله عليهم من القول الثقيل؛ حيث وجب علينا أن نُظْهِرَ هذا الدين علىٰ الدين كلِّه، ولو كره المشركون، وهذا لن يكون إلا بجيوشٍ من الدعاة، وزحوفٍ من

الفاتحين، وإن إعداد هؤلاء وهؤلاء دونه جهود أجيال، واللُّبَدُ من الأموال، وقوائم من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضىٰ نَحْبُه، ومنهم من ينتظر، وما بَدَّلوا تبديلاً.

إن الأكثر عونـًا علىٰ قيام الليل أن نرصده ليومٍ طُولُه خمسون ألف سنة، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، وترىٰ كل أمةٍ جاثية، حتىٰ يتمنىٰ الناس الاستراحة من هَوْل اليوم العبوس القمطرير الذي جعل الولدان شِيبـًا، ولو إلىٰ جهنم، وما دَرَوْا أن مثلهم في ذلك مَثَلُ من يَفِرُّ من الرمضاء علىٰ النار.

إن قيام الليل نافلةٌ، وإن الأهم منه التشبث بصلاة الجماعة حيث يُنادي بالصلوات الخمس؛ فإنها تعدل سبعـًا وعشرين صلاة، ومَنْ يطيق أن يكرر أيَّ صلاةٍ سبعـًا وعشرين مرة، أو حتىٰ سبع مرات؟!، وإن ذلك يستغرق الوقت كله؛ لنكون من الموقنين أن أصحاب صلاة الجماعة يجدون ثواب صلاتهم كما لو قطعوا العمر كلَّه سُجَّداً وقيامـًا، فيصبحون كالملائكة الذين يُسَبِّحون لله بالليل والنهار وهم لا يسأمون.

ومن الأعمال في رمضان أن أكثر الموسرين يحرصون علىٰ إخراج زكواتهم في رمضان، كما يَسْخَوْنَ بفضول أموالهم ما لا تندفع له نفوسهم في غير رمضان؛ ذلك أن النافلة فيه بفريضة، والفريضة بسبعين؛ فإذا كانت حسنةُ الإنفاق في سائر السنة بسبعمائة؛ فما بالكم لو ضُربت في سبعين لمن طاب مَطْعَمُهُ، وطاب بها نفسـًا؟!.

إن من يتصدق ولو بدرهمٍ واحدٍ في غير رمضان يكون أجره كمن تصدق بدرهم علىٰ مدار سبعمائة يوم؛ أيْ حولين كاملين، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم، فما بالكم بمن يُؤْتي ماله يتزكىٰ، وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزىٰ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ؟!.

إن من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله، وتثبيتًا من أنفسهم؛ مثل عمله كمثل جنةٍ بربوةٍ أصابها وَابلٌ، فآتتْ أُكلَها ضِعفين؛ فإنْ لم يُصِبها وابل فطَلٌّ، وقد أتىٰ أبو بكر ذات مرة بماله كله صدقةً من فَرطِ يقينه بالله، بينما جاء عمر بنصف ماله، وتصدق عثمان بما غَفَرَ الله له به ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما عليه ما عمل بعد ذلك، فهو ممن اطَّلع عليهم ربهم، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم، بينما كان عليٌّ ممن يطعمون الطعام علىٰ حُبِّه مسكينًا ويتيمًا وأسيراً، ولسان حاله يقول: إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً، وقد ذهب أهل الدُّثُور منهم بالأجور والدرجات العُلا، بينما كان الذين لا يجدون ما ينفقون يتصدقون بأعراضهم علىٰ المؤمنين، فيسامحون من أساء إليهم بظهر الغيب، فلا يَبِيتَ أحدهم وفي قبله غِلٌّ للمؤمنين.

وإننا لا نرجو أن نداني يقينهم وإنفاقهم، ولكننا ننصح أن نُخرج من أموالنا ربع العشر، مما قَلَّ منه أو كَثُر، نصيبًا مفروضًا، أو حقًا معلومًا للسائل والمحروم، ثم ندعو أن نتشبه بأهل الجنة الذين آمنوا أنه في أموالهم حق للسائل والمحروم بما يَسُدُّ حاجتهم زيادةً علىٰ الحق المعلوم، والزكاة المفروضة.

ومن فضائل رمضان كثرة التلاوة للقرآن التي نتزود منها للإيمان، لاسيما التلاوة المتقنة، أو الترتيل علىٰ وجه التنزيل، مع تدبر المعاني، والدلالات للألفاظ والتراكيب، ثم بالنظر في السياق وأسباب النزول، ومن بعد ذلك في التفسير الموضوعي لا الموضعي، وهو الذي يجمع أطراف الفكرة من مواضعها في القرآن كلِّه، والأهم منه فقه التنزيل لتلك المعاني من آفاق النصوص إلىٰ الواقع الذي يُجَسِّدهُ علىٰ الأرض كالبنيان المرصوص، وحالئذٍ نشعر بأن القرآن كأنما تنزل علينا من فَوْرِه، ولم يَمْضِ عليه فوق أربعة عشر قرنًا، ولسوف يكون له مذاق خاص، وسيكون أثره في الإقناع والخشوع ما يدعو إلىٰ الخُرُورِ سُجَّداً وبُكِيًّا، وينشئ المسلمَ خلقًا آخر، كما يكون لنا به ذِكْرٌ بين الأمم، أو صدارة

العالم، فنحن خير أمة أُخرجت للناس بهذا الدين، ونحن الأحقُّ بالسيادة والريادة والقيادة؛ لتكونوا شهداء علىٰ الناس.

إن ألوان الطاعة التي احتضنها رمضان أكبر من أن تُطوىٰ في مقالٍ، وما ورد هنا ليس إلا أمثلة لأمهات العبادات التي رأيناها رأي العين في هذا العام، وإن المطلوب أن نَعَضَّ عليها بالنواجذ، ولو في الحدِّ الأدنىٰ، حتىٰ تبقىٰ تلك النوافل قائمةً في حياتنا، فلا نُميتها بالهجر، أو نُمِيتُ أنفسنا بالاسترخاء والعجز والكسل؛ فقد نشط الآلاف للعمرة، وقد وسَّعتِ الجمعيات الخيرية من وجوه الإغاثة، وكانت حملة الجسد الواحد، وتفطير الصائمين، وكانت المساجد كخلايا النحل، وانطلق الدعاة في برامج الوعظ والإرشاد؛ فضلاً عن تزاور الأرحام والأصدقاء، وغير ذلك من الأنشطة التي تؤكد مفهوم إذا فرغت من عمل فانصب في غيره، حتىٰ لا يكون وقت فراغٍ يضيع، فنندم عليه يوم القيامة، والمهم هو الإخلاص لله، والرَّغَبُ فيماُ عنده، والرَّهبُ من سخطه وبطشه. والله المستعان

تكبيرات العيد إعلان لكبرياء الله فوق مؤامرات اليهود وعَمَالات العبيد

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]

إن الصيام أيامٌ معدودات، والمعدود هو القليل؛ كقوله تعالىٰ عن اليهود في استهانتهم بجهنم، واجترائهم علىٰ رفض التحاكم إلىٰ كتاب الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

وقد أمر الله جل جلاله مَنْ شهد منكم الشهر أن يصومه، فإذا لَحِقَ به العسر لسفرٍ، أو مرض؛ جاز له الترخص بالفطر، ولزمه فيما بعد الشفاء أو الإقامة أن يصوم بِعِدَّةِ الأيام التي أفطرها، وقد شُرعت الرخصة لتعلموا أن الله يريد بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، فإن المشقة تجلب التيسير، ولو شاء الله لأعنتكم، لكنه بكم رؤوف رحيم، ثم إنه ألزمكم بالقضاء عند غير المترخصين، والصوم لله، وهو الذي يجزي به بغير حساب، بينما كل عمل ابن آدم له، يجزي عليه الحسنة بعشر أمثالها، إلا ما زاد فوق ذلك فضلاً من الله ونعمة؛ كمضاعفة الصدقات إلىٰ سبعمائة، والله يضاعف لمن يشاء.

وأما التعليل بالتكبير فهو يتناول الصوم كلَّه؛ لأن الصائم يكون قد عظَّم أمر الله جل جلاله، فلم يُطِعْ نفسه الأمَّارة بالسوء، وهي تكره الصوم؛ لما فيه من حرمانها من الشهوات؛ فإن الذين تهزمهم نفوسهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، ويقال لهم تحقيراً وتهديداً: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ

مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، كما يقال للنبي والذين آمنوا: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وكذلك فإنه لم يُطِعْ شيطانه وقرينه الذي يُزَيِّنُ له الإفطار؛ فإن رآه حسناً أفطر غير متفطن للإثم، وإذا رآه سيِّئاً صام إيماناً واحتساباً، ولم يعبد الشيطان؛ فإن الشيطان كان للرحمن عصياً، ولم يتبعْ خطواته؛ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وهو إنما يأمركم بالسوء، والفحشاء، وأن تقولوا علىٰ الله ما لا تعلمون، حتىٰ لو قاسمكم؛ إني لكم لمن الناصحين.

ومن هنا كانت مشروعية التكبير في العيد حتىٰ يَشْرَعَ الإمام في الصلاة، ثم تكون التكبيرات الزائدة في الركعتين سبعاً في الأولىٰ، وخمساً في الثانية، ويُسَنُّ للإمام أن يكثر من التكبير في ثنايا الخطبة.

إن التكبير ينطوي علىٰ الإقرار بوحدانية الله وعظمته، فهو أعظم من كل عظيم في نظر الناس؛ كالحكماء والملوك والسادة والقادة، وهو أكبر من كل كبير في الاعتقاد؛ كالآلهة الباطلة عند الوثنيين.

ولما كان التكبير قد شُرع في الصلاة لإبطال السجود لغير الله، كما شرع عند النحر لإبطال الإهلال بالذبح لغير الله، فقد شُرع التكبير عند انتهاء الصوم لإعلان وحدانية الله وعظمته، وليكون مَثَلُ الذي اتخذوا من دونه أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، لو كانوا يعلمون.

إن أهمية التكبير تظهر في إشاعته في حياتنا يومياً، فكل ركعة فيها خمس تكبيرات، وفرض الصلاة ونفلها يناهز ثلاثين ركعة علىٰ الأقل، فهذه مائة وخمسون تكبيرة، وفي أدبار الصلاة المكتوبة يسن التكبير ثلاثاً وثلاثين مرة، مع التسبيح والتحميد والتهليل الذي نختم به المائة، وهنا خمس وستون ومائة تكبيرة، فضلاً عن مشروعية التكبير في بعض الأحوال؛ كالحروب، ورؤية

الكرامات، وعند الإعجاب بشيءٍ، أو الوقوف علىٰ مكان مرتفع؛ بل وعند الصعود إليه، وعند النوم، وغير ذلك؛ كتصريحات القادة الشرعيين، ومواقفهم الحازمة تجاه الكافرين والمنافقين، أو السفلة والفاسقين.

إن الذي يَشُدُّ الانتباه هنا هو جَعْلُ التكبير في مقابل الهداية، «ولتكبروا الله علىٰ ما هداكم»، وإن الهداية المذكورة في الآية هي الهُدىٰ الإجمالي ثم التفصيلي الذي نزل من أجله القرآن، فقد أنزل في رمضان هدىً للناس، وبَيِّناتٍ من الهدىٰ والفرقان، ولا شكَّ أن الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين، فاتَّخِذوا من التكبير القولي والعملي ما تشكرون به ربكم علىٰ نعمة الهدىٰ، والإخراج من الظلمات إلىٰ النور، ثم بإنزال الكتاب مفصلاً، وتبياناً لكل شيءٍ، حتىٰ يكون لنا فرقاناً ونوراً نمشي به في الناس، ولا مرية أن الصوم نفسه من التكبير العملي؛ حين نجعل ربنا تبارك وتعالىٰ وأوامره فوق الهوىٰ الذي اتخذه المنحرفون إلهاً، وفوق النفس البهيمية الأمارة بالسوء، وفوق الشيطان الغَرور، أو الدنيا الحلوة الخَضِرة؛ إذا أخذت زُخرفها، وازَّينتْ، وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها، من قبل أن يجعلها الجبار القهار حصيداً، كأن لم تَغْنَ بالأمس، أو يرسل عليها حسباناً من السماء، فتصبح صعيداً زلقاً، أو يصبح ماؤها غوراً، فلن تستطيع له طلباً.

وأما قوله تعالىٰ: «ولعلكم تشكرون» فهو راجع إلىٰ كلِّ ما تضمنته الآية من أنعم الله علينا، وفي مقدمتها القرآن وهداياته، فقد صِرْنا به خيرَ أُمَّةٍ أُخرجتْ للناس، ففيه ذِكْرُكم وشرفكم ومقامكم في صدارة الأمم، فَبِهِ نِلْنا السيادة والريادة والقيادة، ثم إن الصوم نعمة أخرىٰ، لما له من البركات علىٰ الفرد والجماعة، وعلىٰ الجسد والروح، ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فضلاً عن كون الصوم في ذاته شكراً لنعمة القرآن والهداية.

ثم إن الرخصة لمن كان مريضاً، أو علىٰ سفر، نعمة أخرىٰ تستوجب الشكر علىٰ التخفيف والتيسير ورفع الحرج، وإن إيجاب القضاء وإكمال العدة نعمة

كبرىٰ، حتىٰ لا يفوتنا إخواننا الأصحاء المقيمون بالأجر، والدرجات العلا، ورضوان الله أكبر، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها، فاذكروا نعمة ربكم، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون.

إن الشكر كالتكبير يكون قولياً، ويكون عملياً وقد قال سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

إن الإشارة إلىٰ عيد الفطر بالتكبير هنا، وقد جاءت في سورة الأعلىٰ متجسدة في زكاة الفطر، وصلاة العيد، وهذا أحدُ التأويلات في قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥]

وأما ذكر عيد الأضحىٰ فقد كان أكثر من ذلك؛ إذْ مشروعية التكبير فيه قد وردت في البقرة (٢٠٣)، وفي الحج (٣٧)، كما وردت صلاته والنحر في سورة الكوثر، بينما وردت قصة أبينا الذبيح إسماعيل عليه السلام، وكيف أن الله تبارك وتعالىٰ قد فداه بِذِبْحٍ عظيم في سورة الصافات (١٠٧)، وغير ذلك.

إن العيد في هذا العام له بهجة خاصة، فقد تمكنت الثورة المصرية، وعمودها الفقري الحركة الإسلامية، من الإطاحة بالكنز الاستراتيجي للاحتلال، من بعد أن كان لسان الحال لديه يظنُّ أن لن تبيد سلطته أبداً، ولو بالتوريث، ثم خاضتِ المعركة السياسية من خلال الانتخابات، وفازت بمجلس الشعب والشورىٰ، ثم ظفر مرسي بالكرسي، وقد وضعوا في طريقه الأشواك والألغام، ثم تبينَ أنه كاسحةٌ ألغام، وأن مَثَلَ الفلول كناطح صخرة يوماً ليوهنها، فلم يَضِرْها، وأوهَىٰ قَرْنه الوَعِلُ.

ولعل آخر تجلياتها تلك المؤامرة بقتل ستةَ عشر جندياً مصرياً بالتعاون مع الاحتلال الصهيوني، وأدواته من الهاربين من وجه العدالة من فلول السلطة؛ لتحميل الدكتور مرسي مسؤولية دمائهم، ثم بإرهابه من المشاركة في تشييعهم؛

ليظهر جُبنه وَوَجَلُه، تهيئةً لنبأ الإطاحة به، والانقلاب عليه، ثم قتله، أو الزج به في السجن حيث كان قبل عدة أشهر، غير أن انكشاف المؤامرة، قد أحاق المكر السَّيِّءَ بأهله، فقد أعطوا بخيانتهم الذريعة لطرح أولئك الخائنين أرضـًا، واستبدالهم بمن هم خير للشعب والأمة، مع تمزيق الإعلان الدستوري المكمل، أو المكبل شَرَّ ممزق، وإجراء تغييرات عديدة في الرؤوس العفنة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، ومكر أولئك هم يبور، والله خير الماكرين، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون.

الفهرس

تقديم ٥

الإلمام بأهم الأحكام في مسائل الصيام ١١

الإلمام باليسير من أسرار آيات الصيام ١٧

من صام إيمانًا واحتسابًا تمتع بالطعام والشراب الأبدي عطاءً حسابًا ٢٢

وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ٢٦

الصائمون مع الملائكة الكرام والمفطرون دون بهيمة الأنعام ٣٢

الصوم أقوىٰ عروة وثقىٰ في الاستمساك بحبل التقوىٰ ٣٧

التقوىٰ أزهىٰ لباس وأزكىٰ زاد في هذه الدنيا ويوم التناد ٤١

التقوىٰ هي الخشية والإشفاق الدافعان إلىٰ الطاعة بالعشي والإشراق ٤٥

الصيام تدريب للجوارح علىٰ الفطام عن الحرام علىٰ الدوام ٥٠

الصوم المبرور هو النفور من كل محظور ٥٣

الصيام جنة من إغراء إبليس بالانهزام أمام امرأة العزيز أو هدية بلقيس ٥٧

رمضانُ قد آب، مبشِّراً بفاكهةٍ كثيرةٍ وشراب، وبقاصراتِ الطَّرْفِ أَتْراب ٦٢

جزاء الصائمين قد يرتقي إلىٰ سبعين من الحُورِ العِين ٦٥

إحياء الليل والقيام في سائر العام يصنع أولي العزم المتشبهين بالملائكة الكرام... ٦٩

العبرة بالخواتيم، والصوم عاصم من السقوط في دَرْكِ البهيم ٧٣

اليهود هُمْ أرذَلُ قومٍ في انتهَاك مقاصِدِ الصَّوم ٧٧

بالصوم في الصيف، والضرب بالسيف تأمنون من حَرِّ الحشر، ومن لظىٰ سَقَر ٨٢

البشارة بالفرح بالنصر قبل سبع سنين من ميقات معركة بدر..... ٨٧
الصـوم والنصـر تـوأمـان من بـدرٍ إلىٰ عـين جالـوت..... ٩١
دهشة النصر في بدر تتبدد بمحاكمة فراعنة مصر، وبآيات الله الكبرىٰ في هذا العصر ٩٦
الصوم توأم الجهاد لتحرير العباد وتطهير البلاد ١٠١
الصائمون رجال لا يركعون للمال، ولا يسجدون للجَمَال، فَيُجَنْدِلون الأبطال ١٠٦
الصوم عن المنكرات السياسية أوجب من الإمساك عن الأعلاف ١١١
الإدمان علىٰ تدبر القرآن يُلِينُ القلوب القاسية لأهل الإيمان ١١٦
ليلة القدر تزفُّ البشرىٰ بالبطشة الكبرىٰ، وبشجرة الزقوم لكل مُعْتدٍ أثيم ١٢١
ألوان العبادة في ليلة القدر خير من جهاد السابقين ألف شهر ١٢٥
ليلة القدر تضع حجر الأساس لِبُنْيانالدين، وتحتضن ميلاد أمة خير المرسلين ١٣٢
سورتا القدر والدخان تشيدان بليلة القدر وتشيران إلىٰ بركة القرآن ١٣٦
بشرىٰ النصر في هذا العصر من بركات ليلة القدر ١٤١
أضعف الإيمان أن نستمسك بالحد الأدنىٰ من وظائف رمضان ١٤٤
تكبيرات العيد إعلان لكبرياء الله فوق مؤامرات اليهود وعَمَالات العبيد ١٤٩